Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

محمود تيمور

خلف اللثام

893.7T135
S4

Nov 23, 1955 SB

فهـــرس

صفحة

١ — خلف اللثام ٥

٢ — تأمين على الحياة ٢٥

٣ — المستعين بالله.. الكابتن هاردى ٥٣

٤ — عند ما تبصر القلوب ٧٣

٥ — دنيا جديدة ٨٥

٦ — شيخ الخفر ٩٣

٧ — عند ما نحيا مع الأطياف ١٠٧

٨ — كيف طارت منى أكسفورد ١١٧

٩ — الجزاء ١٣١

١

خلف اللثام

سيدتى

لا ريب أنك تعجبين ، إذ أوجه إليك هذه الرسالة ، بعد أن انفصم ما بيننا من أسباب التواصل الروحى ، منذ عشرات من السنين ...

لقد تعارفنا فى مؤتنف الشباب ، ولكنى الآن أسائل نفسى :

على أى نحو كان هذا التعارف ؟

ثمة صلة سلفت بيننا ، ما أعجبها من صلة ... لست أدرى فى يومى هذا ماذا كان لونها على وجه التحقيق ؟

كنا نعد نفسينا صديقين ، أوفى ما نكون تصافيا ومودة ، على حين أننا ظللنا لا يرى أحدنا صاحبه فى عالم المنظور ، وإن تجلى كلانا على أخيه فى عالم الأطياف ، ودنيا الأرواح !

وما أنسى أن هذا التواصل الروحى كان أسمى مكانة وأروع مقاما من مألوف الصداقات بين الناس ...

تواصل امتد بيننا عاماً وبعض عام ، ثم انطوت صفحته بعد ذلك مدى هذه الأعوام الطوال ...

إنى حين أنبش ذلك الماضى السحيق ، أسائل نفسى فى حيرة وعجب :

أكان بيننا حقا هذا التواصل الروحى ، أم أنه باطل من الوهم والوسواس ؟

ولكن أنى لوهم كاذب ، ووسواس باطل ، أن يتمخض عن تلك الحقائق الناصعة التى وجهت حياتى وجهة معينة ؟

أ آدمية أنت حقا ، عشت فى هذه الدنيا كما أنا أعيش ، أم كنت خيالا صاغه القدر لى مزحة وملهاة ؟

اليقين الذى لا يخالطه ظن أن تراسلا كان بيننا ، إبان ذلك التواصل الروحى ، فلقد تناهت إلى رسائل منك ، أما رسائلى إليك فكانت مقطعات شعرية أنظمها وأنشرها فى إحدى الصحف ، لتكون جواب رسائلك إلى ...

لم يكن من سبب مادى بينى وبينك إلا تلك الرسائل ، وإنه لعزيز على أن أتفقدها الآن ، فلا أجد منها واحدة أبقتها لى تصاريف الأيام ، واحدة تؤكد ثقتى بأنك كنت شخصاً حقيقيا ، لا طيفا ، ولا عروس أحلام !

شد ما بحثت عن هذه الرسائل ، فلم أعثر لها على أثر ، وقد كانت فى الأمس البعيد ذخر خزانتى ، أحرص عليها حرص الشحيح على نفيس المتاع ...

كانت قبلتى التى أوجه نحوها وجهى ، أتملاها وأستملى منها إلهامى ، بل كانت حافزى الذى يدفع بى قدما فى غمرة العيش ومزدحم الحياة .

هأنذا اليوم أتنفس أنفاس شيخوخة هادئة رخية ، لا يروعنى شىء من جماح الشباب ، وثورة العواطف ، فماذا دهانى الساعة حتى خطرت أنت ببالى ، وهيمنت على نفسى ، وأصبحت لى شغلا شاغلا ؟

كنت أقلب منذ قليل كتابا من كتبى القديمة ، فاسترعى انتباهى وريقة لعبت بها يد البلى مدسوسة بين الصحف ، وفى تلك الوريقة تبينت حروفا ناصلة ، واستطعت بعد لأى أن أقرأ بها أبياتا من شعرى العتيق ، تضمنت نفثة من الصدر ، وبثة من الجوى ...

هذه الأبيات هى إحدى رسائلى إليك ...

قرأت ما فى الوريقة ، فلم يهتز قلبى لما حوت ... إنه شعر من هذا

العبث الذى تجرى به أقلام الشعارير ، ولطالما سودت الأوراق من مثل هذه الأبيات العجاف ...

قصارى ما كان من وقع هذه الوريقة البالية فى نفسى أنها أثارت سوالف أشجان ، وورواقد ذكريات ، فاذا أنا أمام عهد قديم ينفض عنه الغبار ، ويخلع الدثار ، وتتجلى به تلك الفترة الشاذة من أيامى ، وإذا أنت — يا سيدتى — تبدين قبالتى ، فأستشرف طيفك بعد غيبة حقبة تترابط فيها عقود من السنين ...

إنك لتعودين اللحظة إلى ، وإخالك تبسمين ، وكأنى بك تهمسين قائلة لى :

— قد أكون طيفا ، وقد أكون وهما ، ولكن مابرح لى وجود ثابت فى نفسك ، وأثر باق فى حياتك ، هيهات أن يسبل الزمان عليه ستر العفاء !

حقا إنك لأثر لا يتطرق إليه الفناء ، وكيف يمحى وحياتى الراهنة فى وضعها القائم ليست إلا صوغ يمينك ، وخلق إرادتك . وما يسوغ لى أن أكون المنكر الجحود !

قد تكونين اليوم فى ربقة الحياة ، وقد تكونين فى ذمة المنون ، وقد تكونين فكرة من نسج الوهم والخيال ... ولكن هذا لا يردنى عن أن أخط إليك تلك الرسالة ، أعبر فيها عن بعض ما هو كامن راسب فى وليجة نفسى .

أعترف الساعة بأن تلك العاطفة السالفة لم تكن إلا ضربا من الحب القاهر ... وعلى الرغم من فورة عاطفتى يومئذ فانى لم أكاشفك بدقائق شأنى ، فكل ما ناجيتك به مقطعات شعرية جياشة ملتهبة شديدة الاغراق فى الخيال ...

والآن ، بعد انقضاء ذلك الزمن المديد ، أرانى شيقا إلى أن أفضى إليك بذات نفسى ، وأصارحك بما لم يجر به القلم يومذاك من أمرى .

لقد حان أن أطلعك على طوايا حياتى ، فذلك هو أنسب الأوقات للمكاشفة والافصاح ...

لم لم أفض إليك بهذه الحقائق إبان تواصلنا بذلك البريد العجيب ؟ لم لبثت أكتمها طوال تلك الأعوام ، ولم أفكر فى الافضاء بها إلا اليوم ؟ أما كان خليقا بى أن أباديك بكل شىء فى فترة التواصل ، والشباب جديد ؟

ثمة قوة خفية كانت تسيطر على ، وتصرف أمرى ، ولا تدعنى أقطع من دونها رأيا ...

ماذا كان يحدث ، لو كنت أفضيت إليك بكل شىء عندى ؟

ماذا كان يحدث ، لو كنت رأيتك ، وتم لى لقياك ؟

أكانت الأمور تجرى فى أعنتها التى جرت فيها ، وتسلم إلى ما أسلمت إليه من مصاير ؟

لقد كانت معرفتى إياك على ذلك الوجه ، مفصلا فى حياتى بين عهدين : ماض بغيض .

ومستقبل بهيج .

رسالتى إليك الساعة عرفان بجميلك ، وإقرار بما كان لتعارفنا من فضل فى نقلتى من ضيقة وظلمة وإقفار ، إلى ميسرة ونضارة ورواء !

حقا إن الانسان أعجوبة الدهر ...

إنه ليختزن بين جنبيه قوى عجيبة تزخر بها نفسه ، وإن ذخيرة النفس من هذه القوى لتظل محجوبة مستورة ، قد لا يدرى صاحبها من أمرها أى شىء ...

واعجباه لامرئ يتلمس خارج نفسه السبيل إلى تحقيق رغابه فى السعادة والهناءة ...

ألا إنه لو أنصف لعدل ببصره إلى أغوار نفسه يسبرها ، ليكشف فيها عن تلك الكنوز يملأ منها وطابه ما وسعه أن يملأ ، تلك الكنوز من النشاط والفورة وأسباب الرغادة والاسعاد ، تلك الكنوز من الآمال والمطامح التى تتوهج جذوتها فتشيع فى أقطار النفس الحرارة والحمية والانبعاث !

ولكن المعضلة المستعصية هى : كيف يهتدى المرء إلى مفتاح تلك الكنوز ؟ وكيف يتعرف مكانها من قرارة نفسه ؟

فى أساطير الأولين حديث عن مرآة سحرية إذا وفق إليها امرؤ تسنى له أن يستبين على صفحتها خبايا ما تشره إليه نفسه من أوطار ورغاب ، فلا يلبث أن يسلك الطريق إليها على هدى ونور ...

ولقد تاح لى أن أجد هذه المرآة السحرية التى دلتنى على ذلك المفتاح المنشود ، وهدتنى السبيل إلى مكان الكنز الكمين ...

كنت أنت مرآتى السحرية !

بك تجلى لى جوهر نفسى ، وتقشعت الغشاوة عن بصيرتى ، وانزاح لى القناع عن سر الحياة !

لقيتك وأنا فى حالة من الاقفار والبأساء ، تدف حوالى أجنحة اليأس . فاذا أنت تخرجيننى من حال إلى حال ، وتهدينى فى الحياة صراطاً سويا ، كأنى منه فى روضة غناء !

يومئذ كنت قريب عهد بفقد أبى ، عائلى الذى لا عوض لى منه ، بل كل ما كان لى من ذوى القربى ... ولم أكن قد استكملت دراستى بعد ... وما كانت سنى تزيد على الثامنة عشرة ... فوجدتنى بين عشية وضحاها وحيدا منقطعا ، لا عون لى على الحياة إلا ميراثى من معاش أبى ، وهو مبلغ ضئيل لا يسد فاقة ، ولا يكاد يغنى من جوع . فاضطررت أن أتخلف عن الدرس ، وأن أقنع بغرفة فى سطح منزل فى زقاق ...

وتطلعت نفسى إلى عمل أتقوت به ، ولكن ما كان أشق على أن أبلغ فى هذا السبيل مأربا ؛ فانى نشئت تنشئة دلال واتكال ، فلما صرت فردا فى معترك الحياة أحسست الخجل والتهيب ، وقر فى ذهنى أنى لا أجيد عملا ولا أصبر على جهد ، وقد زاولت شكولا من الأعمال ، فكان نصيبى الاخفاق الوشيك ، واعتقدت أنى لست إلا آلة علاها لصدأ قبل أوانه ؛ فأكل منها حتى تعطلت ...

وساورتنى فكرة الانتحار ، ولكن من أين لواهن النفس ، خوار العزم ، أن يمارس هذا العمل المتهور الجسور !

وقبعت فى غرفتى ، مستخذيا متخاذلا ، لا أريم مكانى ، وأصبحت كأنما أنا حيوان نفور لا يأنس بشىء ، حتى ليضيق بالنور !

وبلغ بى الشظف أشد مبلغ ، واضطربت بى الحال أسوأ مضطرب : شعر أشعث أغبر ، وكساء خلق رث ، ومطعم تافه غث ، ونوم قلق ، ويقظة خاملة !

وكان لى فى عهد الدراسة ميل إلى الأدب ، وولع بالشعر ، فلم أجد متنفسا فى وحدتى الجافية الجوفاء إلا أن أطالع بعض ما عندى من دواوين الشعراء ؛ ووجدتنى مغرى بالشعر الصوفى ، والغزل العذرى ، فأقبلت عليه أتخذه لى متاعا وسلوى . وكنت أرانى بعد أن أرتوى من المطالعة ، كأنما قد خفت بى أجنحة إلى آفاق علوية ، وهامت بى فى أودية الأحلام !

وترادفت على أيام تطالعنى بهذه الحياة العجيبة التى لذت لى ، فجريت فى عنانها طلقا جموحا ...

ويوما وأنا فى غمرة هذه المطالعات لأشعار المتصوفة والعذريين وقع لى حادث طارئ ، لا أدرى أكان وقوعه فى أحلام اليقظة أم فى رؤى المنام ؟

لقد تراءى لى وجه نسوى فاتن ، وإنى لأصفه بالفتنة على حين أنى لم أتبين من قسماته شيئا ...

لمح لى هذه المحيا خلف خمار ليس بالشفيف ولا بالكثيف ، فكنت أحس فتنته كما يحس المرء حرارة الشمس خلف الغمام .

لبث هذا المحيا قبالتى فترة قصيرة ، شعرت أثناءها بقوة سحرية تجذبنى إليه وتصلنى به ، وما عتم المحيا أن توارى عنى ...

ولو جاز لى أن أعتقد أن ذلك كان رؤيا ، لكانت هذه الرؤيا ضربا فريدا لا عهد لى بمثله من قبل ، فانها أودعت قلبى أثراً ملأ على أقطار نفسى جميعا ، وشغل وقتى كله !

وانصرم يومان قضيتهما كما أقضى سوالف أيامى : محتبساً فى وكرى ، أطالع تارة وأتأمل تارة أخرى ، لا ينقطع تفكيرى لحظة عن ذلك الطيف العجيب ، وتلك الرؤيا الغامضة ، أحاول عبثا أن أكتنه السر فى حيرة واضطراب .

وفى أمسية يومى الثالث تبلج لعينى ذلك المحيا الصبيح ، على حاله التى رأيته فيها أول مرة ، بيد أنه الساعة أسطع نورا وبهاء ، وأحسست كأنه يناجينى ...

لم تختلج له شفة ، ولم يند عن فمه صوت ، ولكن مناجاته كانت جلية وضاحة تترسل إلى أعماق نفسى ...

لقد تأدت إلى تلك النجوى معانى صافية ، وإن لم تتخذ لها أوضاعا من كلمات وحروف ...

ما شأن الحروف والكلمات بحديث النفوس ونجواها ؟

إن تلك الرموز من ألفاظ ومصطلحات ميدانها العقل وحده ، فأما النفس فانها فى غنية عن ذلك بما لها من قدرة على تفهم العواطف والتقاط المشاعر واكتناه السرائر ...

لم تكن الحروف والكلمات إلا وسائل وقوالب لابلاغ المعانى والصور ، فليت شعرى ما حاجة المرء إلى هذه الوسائل والذرائع إذا أوتيت النفس قوة الابلاغ والتراسل فى صمت وسكوت ؟...

وأيهما أصدق فى الابلاغ والتعبير ؟ ... أن يتم التواصل بأساليب من الترجمة يتعاورها الاخلال والنقص والقصور ، أو أن يكون التواصل مباشرا تتجلى به نفس على نفس ، وتمتزج به روح بروح ؟

أليس كلما استنارت البصائر ، وصفا جوهر النفوس ، وترفعت الأرواح عن مظاهر الحياة المألوفة ، كان التواصل أروع وأسمى ، والتفاهم أدق وأوفى ؟

لم أكد أخلص من نشوتى بهذه الزورة الثانية حتى شعرت باشراق فى وجدانى ، وألفيتنى كأننى ألم شعثى ، وأتجه وجهة معينة ، وأتخذ لى

غاية مرسومة ، وإذا بى أخط على القرطاس باكورة شعرى ...
كانت هذه الأبيات تحية لذلك الطيف ، جعلت عنوانها :

إلى ذات اللثام

وما إن أتممت نظمها حتى رحت أتغنى بها ، مستعيدا متطربا ، يملكنى زهو و إعجاب ...

وعز على أن أستأثر بهذا الاعجاب لنفسى ، ورأيت أن من حق الناس أن يشركونى فيه .

إن الكنز إذا ضن به صاحبه على أعين الناس ، أضحى لا شأن له ولا خطر . قيمة الكنز فى معرفة الناس إياه ، وانتفاعهم به ...

ولكن أى ناس أولئك الذين يعنينى أن يشركونى فى المتعة بهذا الشعر الذى أودعته قبسة من الروح ؟

ليس يعنينى أن يطلع أحد على هذه الأبيات ، قدر ما يعنينى أن تقرأها هى ...

هى !

من تكون ؟

طيف يزورنى فى هدأة من الليل ...

أيكون لهذا الطيف وجود فى عالم الأحياء ؟

وشردت بى الأفكار كل مشرد ، وعرانى ارتياب فى شأنى :

أصحيح أنا سليم الفكر ؟

أم أسير هواجس ووساوس تدعنى كأنما أصابنى مس ؟

على أنى خلصت من هذا الاضطراب كله برأى حاسم ، لا منتدح عنه ، هو أن أنشر القصيدة فى إحدى الصحف السيارة لتطلع عليها ذات اللثام ...

وهرعت من فورى أترك الدار ، فقصدت أستاذى فى العربية إبان عهد الدراسة ، وكان قد انقطع عن التعليم ، وأقبل على الصحافة ،

فأنشأ له مجلة ، فرجوته أن ينشر لى تلك الأبيات ، وطفقت أنشده إياها فى حميـة واندفاع . فتناول الورقة منى ، وسكن من روعى ، ووعدنى بنشر الأبيات فى مجلته « النجم » .

وصدقنى الأستـاذ وعده ، فقد اكتحلت عينى بمرأى الأبيات فى المجلة بعد قليل ، فعجلت بنسخة من المجلة إلى البيت ، وانفردت بها فى غرفتى ، وانطلقت أقرأ القصيدة جهير الصوت ، كأنى ألقيها بين يدى « ذات اللثام » ...

ووجدتنى أتهالك على مقعدى أقلب الفكر : أتقع عينها على المجلة فتقرأ الأبيات ؟ ماذا يكون وقعها من نفسها ؟

وانتظمتنى سنة من نوم ، وسرعان ما طالعنى المحيا الصبيح خلف لثامه ، وهو على حاله من التخفى ، لا أتبين من قسماته شيئا ، ولـكنه كان باهر السنا ... وشعرت أن ابتسامة ترف على شفتيه ، وكأنه يعرب لى عن غبطة ورضا ...

قضيت يومين وأنا فى شبه حمى ، وفى صبيحة اليوم الثالث وقع بصرى أول ماوقع على رسالة قذفت لى من عقب الباب ... ألى هـذه الرسالة حقـا ؟ وممن وليس لى بأحد صلة ؟ من فى الدنيا يأبه لوجودى ؟ ومن فى الدنيا يعرف لى مكان وجود ؟

ثمـة شخص واحد ، كائن مستور ، هو الذى يتصل بى ، ويعنى بأمرى ...

ورحت أقلب الرسالة بين يدى ، ثم انثنيت أفض غلافها مرعش البنان !

ما كذبنى ظنى ...

وقرأت :

« سيدى

هززت نياط قلبى برائع قصيدك ، فى كل لفظة من أبياتك خلجة من

خلجات النفس تضطرم وتتوهج ، وما هذه القصيدة إلا لحن شائق يسمو بالمشاعر فى علوى الآفاق ... و إنى لأقرؤها وأقرؤها ، فكلما لج بى التكرار تجلت لى معان مشرقة مختلف ألوانها ، كما تتضوأ الجوهرة تحت الشعاع مختلفة الألوان . تلك كلمات أخطها إليك ، ما أغناك عنها ولكننى لم أستطع كتمانها ، فأنا أبلغها إليك على استحياء ، مشفوعة بتحايا الاعجاب والاعزاز .

ذات اللثام . »

رفعت عينى عن الرسالة ، محدقا فى عرض الغرفة ...

لقد وقعت المعجزة !

ليست الحياة عقيما لا تتمخض عن معجزات ...

لا مستحيل فى الوجود ...

ما قد نظنه عصيا أو ممتنعا أو محالا ، يمكن ويوجد ميسورا إذا لاءمته ملابساته ، وواتاه إبانه !

طال ترددى النظر فى الرسالة ، أقرؤها مبدئا ومعيدا ، وأجهر بقراءتها مرة ، وأخافت بها أخرى ...

وتسربت فى شعاب نفسى غبطة وراحة ، كأنى كنت فى سفينة تعابثها غوارب الموج ، وتتلعب بها نكباء الرياح ، ثم أسلمنى سعد الحظ إلى شاطىء سلامة وأمان ...

قلت لنفسى :

وافاك اليوم من يرعاك ، ومن يقاسمك شعورك وهواك ، فطيبى ثم طيبى ، وتملى بهجة الحياة !

وخرجت من فورى إلى إحدى الرياض ، وقضيت وقتى أتطلع حولى فى مراح ، ووجدتنى أنظم أبياتا أخرى جعلتها جواب الرسالة ، وأودعتها عاطفة جياشة وشكراً على حسن الصنيع !

ومضيت بالقصيدة إلى أستاذى ، فتقبلها بقبول حسن ، واستبقانى عنده غير قليل من الوقت ، يسألنى ما شأنى ، ويتعرف خبرى ، ثم

ألفيته يعرض على فى لهجة أب حدب أن أعمل فى مجلته لقاء مكافأة معينة ، فما كان أسرع استجابتى !

واضطلعت من فورى بما أسند إلى من عمل ، وقد أفعمت نفسى حيوية وحمية ... واستمر عملى فى المجلة ، يزداد نشاطى يوما بعد يوم ، ويقوى حرصى على أن أبلغ رضا أستاذى الذى أهلنى لذلك العمل الكريم ...

ولا حظت أنى أنام نوما لا يعكر صفوه معكر ، وأخذت أعنى بخاصة شأنى ، وأحسست بأنى أقبل على الطعام فى شهية ، وأتأنق شيئا فى ملبسى وزينتى ، وكلما سرت فى الطريق تمثل لى وجه يرقبنى من وراء حجاب !

توليت بنفسى الاشراف على نشر القصيدة الثانية ، فابتهجت بظهورها فى المجلة ابتهاجى بأختها من قبل ، وقضيت فترة من وقتى مهتاجا أفكر فى شىء ذى بال ...

ومضى يومان يزداد بى الاضطراب ، أترقب شيئا يحدث ، وأخشى أن يطول ترقبى ...

واستبد بى القلق ، فسهرت ليلتى الثالثة نافر الجفن ، ثائر الأعصاب ، وتهيبت الانهزام ، وأحسست أن قصور الأمانى تترنح تحت العواصف الثقال ...

وظللت ساهدا حتى ساعة السحر ، ثم انكفأت على مرقدى ، فتملكنى نوم لم أصح منه إلا قبيل الظهر ، فما إن استيقظت حتى وجدتنى أدلى بنظراتى إلى عقب الباب ، فلمحت الرسالة ، وسرعان ما قفزت إليها قفزة الصديان حرقه الظمأ فى هجير فلاة فاذا ينبوع ينبجس منه ماء نمير !

كانت الرسالة تحية رقيقة من صاحبتى « ذات اللثام » ... تحية عاطفية ختمتها بقولها :

« ما أعجبه قدرا ذلك الذى جمع بيننا وهيأ لنا فرصة اللقيا فى طريق الحياة على هذا النحو ... وها نحن أولاء نلتقى دون أن يرى أحدنا صاحبه ، ولكن أى جدوى لرأى العين ؟ ألا تحس أننا نتراءى ونتناجى على وضع أصدق وأعمق من وقوع بصر على بصر ، ومن حديث

فم إلى فم ؟... ثق أنى لك صديقة وفية يملأ إعجابى بك أقطار نفسى جميعا ... »

طويت الرسالة وأنا أهمهم :

أصديقة هى فقط ؟ إنها لتعلو على مراتب الصداقة والألفة وما فى معجماتنا من كلمات دنيوية تقاس بها الاعتبارات ...

ليس ثمة من كلمة تكشف معنى تلك الصلة الرفيعة التى تربط بينى وبينها !

سيدتى

إنى لأعرض لك اليوم فى كتابى هذا تلك المشاهد السحيقة من ماضى القصى ... فأذنى لى أن أسألك الساعة :

ماذا كان موقفك أنت من تلك الأحداث ؟

أتذكرين تلك السويعات العجيبة التى كنت أشاركك فيها الحياة والنجوى ؟

أتذكرين زوراتك لى ، أو بالحرى : إلمام طيفك بى ، أو على وجه أصح : تخايل وجهك خلف اللثام ، يبعث إلى من ومض عينك سنا يضىء لى ظلماء الحياة ، ويوقظ أوصالى مما يستبد بها من سبات وخمول ؟

لقد سايرتنى شوطا ليس بالقصير ، فهل كنت على بينة مما كان ينتابنى من تأثر وتطور وانسياق ؟ وهل ظلت على مرقبة من خطاى فى هذه السبيل ؟

وذلك التراخى الذى جد فيما كان بينى وبينك من علاقة ، وهذا الافتراق الذى كان من أثره أن انقطع ما كان بينى وبينك من تراسل ، هل توضح لك من أسباب هذا وذلك شىء ؟

أما أنا فما أجهلنى بتلك الأسباب ، وما أعجزنى عن إدراك كنهها ! ...

لقد ترامى عنى ذلك العهد ، فلم أعد أذكر دقائق تلك المغامرة الحافلة التى كنت أنت دعامها المتين !

أنسى ولا أنسى معالم بارزة الأثر فى تلك المغامرة ... ومن أين لى نسيان أنى أحببتك يا سيدتى ؟

لزام أن أسوق إليك هـذا الاعتراف اليـوم فى غير مساترة ولا جحود ...

لقد أحببتك حبا غريبا تشعب فى أنحاء الضلوع ، فكنت مشوقا غاية الشوق إلى أن أراك ، أقصد أن أرى وجهك المتخفى خلف لثامه ...

ولكن أى حب هذا ؟

أطيف أحبه ؟

أخيال أتعشقه ؟

أحلم أتوله به ؟

لم أكن لألقى بالا إلى شىء من هذا كله ، فأنا فى شغل بما ينتظمنى من غبطة وانشراح . وكان مما يزيدنى اغتباطا وازدهاء أنى أحس مبادلتك إياى هذا الشعور ، وإن لم تصارحينى به جهرة !

إنه لمن العجب العجاب يا سيدتى أننا كلينا بقينا لا يظفر أحدنا بأكثر من ذلك التواصل الروحى ، ولا يسعى فى دنيا الحقائق إلى تعارف وتلاق !

قنع كلانا بذلك البريد الذى لم يكن يتعدى المناجاة ، وبذلك اللقاء الذى لم يكن إلا تجلى طيف !

ولا أكتم عنك ما هجس بخاطرى ذات يوم ، إذ رحت أسائل نفسى :

لم لا أطلب لقاءك ؟

لم أحرم نفسى رؤية من أحب سافرة قد انحسر عن محياها اللثام ؟

لم لا أراك كما أنت ، فأتعرف شارتك ، وأتبين قسماتك ؟

لم لا أراك حقيقة ماثلة تنبض بالحياة ، لا خيالا مغلفا وراء ستار ؟

وما كادت هـذه الخواطر تعتلج فى رأسى ، حتى أحسست انتفاضة خشية وتهيب لا أعرف لها مأتى !

مم خوفى ؟

وفيم خشيتى ؟

وبنيت عزمى على ألا آذن لهذه الخواطر فى أن تساورنى كرة أخرى ... حسبى هذا التوفيق الذى أتفيأ متعته ، ولأتجنب ذلك المجهول الذى لا أدرى ماذا يخبؤه لى من طوارئ الشكوك والريب !

سيدتى

إنى باسط لك الآن من أحداث حياتى أطرافا شتى ، وسواء على أكنت بها عليمة أم كنت لا علم لك بها من قبل ؟

هى قوة تستفزنى أن أكشف لك عن طوايا تلك الحقبة العجيبة من ماضى ...

منذ زاولت عملى فى مجلة « النجم » ، ودر على الرزق والكسب ، شرعت أحيا حياة غير التى كنت أحياها ، واستطعت أن ألم من شعثى ، وأرتب عيشى ، فأصبحت فى زيى وفى مأكلى ومشربى على نحو جديد ... وجدير بمن يحب حسناء رفيعة الشأن أن يكون ذا رونق ورواء ! ...

ووجدتنى أحفل بالزهر ، أنتقيه وأعد له الأصص ... وكنت كلما وقفت أجتلى الزهر تتفتح أكمامه ، أرانى بك موصول الفكر ...

ودام تواصلنا على ذلك الوضع المعروف : قصائد أنشرها فى المجلة ، وردود منك تصل إلى فى البريد ، وهاتيك الزورات اللطاف يوافينى بها طيفك بين آن وآن !

وترادفت الأيام وأنا فى بحبوحة هذه السعادة ، وازداد فى العمل نشاطى ، ورأى أستاذى أن يكل إلى فى المجلة جساما من المهمات ، فاضطلعت بها على خير وجه ...

وزيد أجرى ، وانتقلت إلى مسكن آخر أرقى وأكمل معدات ... وكانت فيه شرفة لم تلبث أن حليت بالرياحين ، حتى غدت روضة صغيرة تضوعت رياها ، فكنت أتخذ مجلسى عندها ، أنشد شعرى ، محييا فتنتك ونضرتك التى تمثلها نضرة هذه الأزاهير !

وعلى مر الأيام تكاثر عملى فى المجلة وتشابك ، ووجدتنى أخيرا مسئولا عن شئون الادارة ، مشرفا على تدبير المطبعة التى اشتراها أستاذى ليطبع فيها مجلته ، وليجعل منها موردا لكسب جديد ، فاستغرق العمل فى المطبعة أكثر وقتى ، إذ انهالت علينا المجلات والكتب والأوراق التجارية ، حتى صار طبع مجلة أستاذى جزءا قليلا بالقياس إلى غيرها من المطبوعات ...

واستشعرت لذة فى متابعة العمل وإحكامه ، وبذلت قصارى الجهد فى خدمة أستاذى ، حتى غدوت ساعده الأيمن ، ومضيت فيما بين يدى أستمرئ النجاح والكسب ، فجددت من وسائل عيشى ، وبدلت من نظام حياتى ...

وتعاقبت الأيام شهورا وأنا فى لجة العمل ...

فهل ظل تواصلنا على ما كان عليه ؟

حقيق بى أن أعترف لك بأن ذلك التواصل قد اعتراه تطور ...

لم يتبدل جوهر العاطفة التى أكنها لك ، ولكنها اتخذت مظهراً جديداً قوامه الهدوء والاعتدال .

كنا نتراسل ، ولكن فى فترات ليست بذات قرب ، كما كان الأمر من قبل ...

وأصارحك بأنى أجلت مناجاتك بقصيدى مرة بعد مرة ، مدفوعا إلى ذلك بزحمة العمل ومواصلة المجهود .

ثمة تحول لا ريب فيه اعترى ما بيننا من صلة وعاطفة ...

لم يعد قصيدى يتنفس تلك الأنفاس المضرمة ، ولم تعد رسائلك تحلق فى تلك المطارح القصوى من آفاق الخيال ! ...

كانت عاطفتنا تتجه رزينة الخطا إلى العقل والمنطق ، ومن عجب أن يجرى كلانا هذا المجرى دون أن ينكر على صاحبه شيئا من أمره ، كأنما هو تحول طبيعى لا محيص عنه لنا كلينا !

وحدث أن ساوم بعض الناس أستاذى فى مجلته ، فابتاعها منه ،

وأصبحت صوتا لحزب سياسى ، فاضطرنى ذلك أن أتخلى عنها ...

وتباعدت الفترات بين تراسلنا معاً ، وتسارعت بنا الخطا نحو العقل والمنطق والاتزان ...

وألفيتنى فى المطبعة أنهض بكل شىء ، وأجزل أستاذى لى الأجر ، ووثق بى أعظم الوثوق ، وقويت تبعاتى فى العمل ، فقدرتها خير تقدير ، وتلهب نشاطى ، وازداد دخلى ، وارتفعت بى الحال درجات فوق درجات ...

وكنت ما زلت معنيا فى شرفة مسكنى بتلك الأصص المزهرة ، ولكنى لا أنكر أنى كثيرا ما أعجلتنى مواعيد الأعمال فى المطبعة عن سقيا هذه الروضة الصغيرة وتعهدها ، وكثيرا ما ألهيت عن الاستمتاع بتلك الجلسات التى كنت أقضيها فى صحبة الأزاهير ... فسرعان ما أخذت تضمحل ويدب إليها الذبول والتصويح !

ولم أكن قد بارحت القاهرة خلال تلك المدة التى سلخت فيها عامين اثنين .

وهبت ريح الصيف ، وشد أستاذى رحاله إلى رأس البر مع أسرته ، إذ استأجر عشا يمضى فيه شهرا وبعض شهر ...

ومكثت أنا فى القاهرة يستأثر بى العمل ...

ويوما تلقيت دعوة من أستاذى أن أوافيه فى رأس البر ، أقضى هنالك معه بضعة أيام للترويح والاستجمام ... فابتهجت بهذه الدعوة ، وسارعت إلى تلبيتها ، وما هى إلا أن حزمت الحقيبة ، وحثثت الخطو ، وحللت مثابة أستاذى فى ذلك المصيف .

وبدأت أستمرئ حياة طيبة فى صحبة تلك الأسرة الكريمة التى تتألف من أستاذى وزوجه وابنتهما فى زهرة العمر ...

ومر أسبوعان ، وأنا هانئ بتلك الصحبة ، قلما نفترق ، نتحلق حول مائدة الطعام ، ونخرج رفقة للنزهة على الشاطئ ، ونسمر جميعا هزيعا من الليل ...

وكنت أحس فى معاملة هذه الأسرة لى روحا من العطف والحنو ، كأنى ابن بار لهذين الأبوين الشفيقين ، وأخ عطوف لتلك الأخت المهذبة الشمائل ...

وظللت أعد نفسى ذلك الأخ العطوف لها ، أرعاها رعاية الاخاء المحض ، ولكن عاطفة الأخوة لم تلبث أن نمت وترعرعت حتى تبدلت خلقاً آخر ...

كان أول لقاء بيننا يوم هبطت العش لقاء تمجيد و إكبار ، ثم استحال اللقاء بيننا تعاطفا وألفة ، ثم تسامى ذلك التعاطف وتلك الألفة إلى شعور أرق وأرهف ...

وطالما أخلى لنا الأبوان السبيل ننعم بجلسات خالية صافية ، أفكان ذلك منهما وليد عمد وقصد ؟ أم الملابسات هى التى هيأت لنا تلك الخلوات ؟

وعلى أية حال ، فقد خلوت إليها ، وخلت إلى ، وتعرفت فيها سماحة نفس ، ودماثة طبع ، ونقاء روح ، إلى خفر وحياء أصيلين ...

وكان لنظراتها إلى تعبير صامت عميق الأثر ، فكثيرا ما أشعرتنى أنها معنية بى ، آنسة إلى !

ومن العجيب أننى حين كنت أنفرد فى مضجعى ، ويرنق فى عينى الوسن ، ألمح طيفك يا سيدتى يتراءى لى ، وأنت على حالك دائما يحجبك اللثام ، ولكن هذا اللثام كانت ترق غلائله فيشف عما تحته من ملامح وقسمات ...

وما أعجب ما كنت أرى!

كنت أشهد فى وجهك سمات من تلك الصديقة الجديدة بنت أستاذى : لون عينها العسلى ، إشراق ابتسامها الحلو ، نضارة بشرتها الخمرية ، تلك الغدائر التى كانت تنساب على منكبيها فاحمة مواجة !

ما أعجبه حدثا لا أملك له من تعليل !

كنت أنت دائما تتراءين لى فى صورة صديقتى الجديدة ... وقد

رمى ذلك بى فى حيرة ممضة ... أكنت بهذا الصنيع تسخرين منى ؟ أم كنت تلومينني على ما كان منى نحو هذه الصديقة من عطف وتودد ؟ وإننى على الرغم من هذه الملامح الجديدة التى كنت ألحظها فى طيفك ، لم أكن أعتقد فى دخيلة نفسى إلا أنك أنت أنت ، روح واحدة ، وإن تغيرت الملامح وتبدلت القسمات !

ولكن أية قسمات وأية ملامح أعنى ؟

لم أكن فيما سلف من أيامى أجتلى لك ملامح أو قسمات تعين على التمييز والايضاح ، فقد كنت دائما فى خفية وراء حجاب الضباب ... أفكنت آنئذ على صورة واحدة لا تتغير ولا تتبدل ، أم كانت صورك تتغير وتتبدل خلف لثامك ، حتى انكشفت لى فى تلك الصورة الأخيرة التى أشبهت فيها صديقة المصيف ؟

سيدتى

إن الحيرة تغتالنى ، فلم آثرت ألا تسفرى لى عن محياك فى وضح النهار ، وتكشفى لى عن حقيقة شخصك ، وتحدثينى فى شأنك ؟ لم ألقيت بى فى متاهات الظن والتخمين يلتبس على فيها الماء بالسراب ؟ مهما يكن من أمر فقد أحسست فى تلك الفترة أن عاطفتى تتجدد لك وتتخذ لها هدفا ومرمى ...

إن حبى ليزدهر ، ولكأن الفترة التى حسبتها فترة تعقل واتزان لم تكن إلا فترة استجمام وتأهب للوثبة القصوى ...

قفلت إلى القاهرة وبين الضلوع نار وارية ، واستأنفت فى المطبعة عملى أنهض به فى حماسة ونشاط ، أحرص ما أكون على مرضاة أستاذى ، وولى نعمتى ...

وإنى واثق أن تراسلنا قد انقطع هذه الفترة ، ولكنى كنت دائب التفكير فيك ، وكثيرا ما كنت تزورينى طيفا كشأنك ، ولكنه طيف تتجلى فيه ملامح صديقتى فى عش المصيف ...

وأقبلت على روضة الشرفة أرعى أزاهيرها ، وأجلس إليها أناجى حبى الذى تتضرم ناره بين جنبى !

ولكن أى حب هذا على وجه الدقة والتحقيق ؟

أحبى إياك أنت ذات اللثام ! أم حبى لصديقتى الجديدة ؟

حسبى أنى كنت أناجى من يخفق لها قلبى ، وأنشد من تحن إلى لقائها نفسى !

كنت فيما سلف قنوعا بذلك التواصل الروحى ، يملأ سمعى نغما ، ويبهر عينى ضوءا ، ولكنى لا أتبين له شخصا ...

أما اليوم فما أنا بقانع ولا مكتف بذلك العبق ، تهب على أنسامه من بعيد ...

ما أشوقنى الساعة إلى لذة الاقتطاف ، ومتعة الاعتصار ...

يا طالما تمنيتك فى تلك الحقبة جسدا يحتويه ذراعاى ، أستنشى منه عطر المرأة ، لا عطر الزهرة ، وأسمع منه صوت الانسانة ، لا لحن الأحلام !

يا طالما تشهيت أن تبسطى إلى كفك فى تلك الزورات الأخيرة ، كفك الرخصة البضة ، أبقيها بين راحتى تبث فى الحرارة والانتعاش ، وأغتنم منها قبلة حافلة أروى بها ظمأ الشفاه ، كتلك القبلة التى اغتنمتها منك ليلة الوداع لعش المصيف ...

أذاكرة أنت ؟

كنا على الشاطئ نتنزه ، والليل ساج ، والنسيم خفاق ، وبيننا حديث ذو شجون ... وأيقنا أخيرا أن التحدث لغو ، فقطعناه بالصمت ، وأغنتنا لغة العيون نتناجى بها فترة ، وإذا أنا آخذ بيدك ألاطفها ، وأودعها قبلة عميقة حرى ... !

لقد عاد أستاذى من مصيفه فى رأس البر ، وشعرت به يغدق عطفه على ، عطف الأب على ابنه الأعز ، ورأيته يكاشفنى بالدقائق من أحواله وأسراره ، وكثيراً ما دعانى إلى تناول الغداء أو العشاء

فى بيته بين أسرته ، فلبيت الدعوة تواقا سباقا مثلوج الفؤاد .

وأكبر يقينى أننا لم نستأنف تراسلنا ، وما حاجتنا إلى الرسائل وقد تلاقينا بعد طول تجوال ؟

لا مرية أن حبيبين تلاقيا ، ولكن ألقيت فتاة أخرى غيرك هى فتاة المصيف ؟ أم لقيتك أنت ذات اللثام ؟

لقد ربط الزواج بينى وبين بنت أستاذى فتاة المصيف ، وعشت معها الأعوام الطوال ، حتى قضت منذ عهد قريب ...

وأعجب ما كان منى أنى كنت كلما هممت أن أستوضح منها شيئا يكشف لى ذلك السر الغامض ، سر العلاقة بين فتاة المصيف وذات اللثام ، وجدت كلماتى قد استحالت بسمات هادئة ، تستجيب لها صاحبتى بالابتسام ... فهل كنا نتكاشف بتلك البسمات الخفيفة الغامضة ، ونستجلى دفائن القلوب ؟

سيدتى

إليك قصتى رويتها لك جلية صادقة ، رويتها لك يا ذات اللثام ، لكى أقتبس منك نورا يكشف لى ظلماء الحيرة والظن والايهام ...

ولا إخالك مجيبتى إلا بقولك :

« دع عنك كل شئ ، وحسبك ما بلغته فى حياتك من مآرب ، فقد خرجت من حال إلى حال ، وبدلت بالبؤس نعمى ، وبالشقاء هناءة ، وبالخمول همة ومضاء . فماذا أنت مريد فوق ما بلغت ؟ فلا عليك أن يكون ما سلف من أحداث مغامرتك وهما أو حقيقة ، فليس الوهم أهون أثراً من الحقائق فى توجيه العزائم وتقرير المصاير وإصابة الأهداف ... »

إن لم يكن لك يا سيدتى من جواب غير هذا الجواب ، فانه عندى فصل الخطاب ... وعليك سلام !

٢

تأمين على الحياة

قهوة صغيرة ، أو قل حانة حقيرة ، ينحشر فيها جمع من الصعاليك والفارغين ، يقضون فيها الوقت ، أو بتعبير أليق بهذا المقام : يقتلون الوقت بثرثراتهم الحادة العنيفة ، ومجادلاتهم التى يسودها العناد والمكابرة ، مفضية بهم إلى المهاترة والمشاجرة والعراك ، على حين يتجرعون نفايات الخمور ...

من بين أوشاب هذه الحانة المدمنين شاب يدعى شافعى أو الأستاذ شافعى كما يصر هو نفسه على أن يدعو نفسه بهذا اللقب ...

ولم لا يكون أستاذاً ، وهو الذى لم يكد يخفق فى حياته الدراسية ، وتلفظه معاهد التعليم ، حتى انزج كاتباً أو شبه كاتب فى بعض دور المحامين ، فشهد المرافعات الخطيرة تتجاوب أصداؤها فى جنبات المحاكم ... ومرت أمام عينيه أضاميم القضايا ، فعلقت بأنظاره أمهات الاصطلاحات القضائية ، وتناهت إلى سمعه أحاديث كتاب المحاماة تتناول إجراءات المحاكم وما إليها من أساليب الحجز والانذار والكيد للخصوم ؟

وهو على بذاذة هيئته يحاول أن يبدو أنيق المظهر ، فرباط رقبته المهلهل الذى قرحته الأدران يعقده عقدة ضخمة كأنها سلحفاة آخذة بتلابيبه ، وشعر رأسه العامر بالمقاذر يرجله ويلطخه بالرخيص من الدهان ، وقد أطل من جيب سترته الأعلى قلم حبر ، أو بالأحرى

أنقاض تاعسة من قلم ثمين لو أوتيت معجزة النطق لصاحت : ارحموا عزيز قوم ذل ! ...

فان هذا القلم أقرب إلى الرمز منه إلى الواقع ... ما أعياه عن أن يخط حرفاً بله كلمة ... ولم يكن الفتى ليريده على أن يجرى بشيء على القرطاس ، وإنما كان يتخذه شعاراً أو شارة تعلن أنه من حملة الأقلام !

كان الشاب يختلف إلى ذلك الحان دائباً لا يتخلف ، ويمضى أطراف النهار وآناء من الليل لا يبرحه إلا خطفاً ... وكان صاحب الحان يلقاه بوجه جهم عبوس ، ونظرة نكراء يتوضح فيها الازراء ... أليس فى ذلك كله آية بينة على ما يتمتع به الشاب من ملحوظ المكانة فى دنيا التصعلك والفراغ ؟

وعلى الرغم من أن هؤلاء الرواد فى ذلك الحان قد ملتهم كراسيهم وضجرت بتشبثهم ، تراهم لا يشعرون بطائف من الملالة والضجر ، إذ كانوا يأنسون بهذا الصخب الذى لا يفتر ، وتلك المحاورات التى لا يخبو لها أوار ، ومتى كلت حناجرهم أشرعوا أبصارهم إلى الطريق يجدون فيه مجالا للمتعة والسلوى ، فقد كان الحان قائماً فى ملتقى شارعين من أكثر شوارع القاهرة ازدحاماً وحركة ... المركبات على اختلاف أنواعها فى جيئة وذهوب ، والسابلة على تباين طبقاتهم وأزيائهم لا يفتر تتابعهم من رجال ونساء ...

فى أصيل يوم كان الأستاذ شافعى يتحدث إلى حشد من الرفاق ، وهم متطلعون يستمعون إليه دون أن يفقهوا له قولا ، وما جعلهم يصبرون على الاستماع إلا أن كلا منهم يريد أن يوهم غيره بأنه من أولئك النفر المسايرين للتطور الاجتماعى ، المشاركين فى جديد أنظمته وأوضاعه ...

ومن حق الأستاذ شافعى أن نسجل له ما أوتى من بصر نفاذ مؤثر يقلبه فيمن حوله ، ولسان ذلق تترادف عليه الجمل طنانة رنانة ، والكلمات فخمة ضخمة ، يلقيها مصطنعاً لهجة المحامين ، متخذاً طرائقهم فى الاشارة والتلويح ، فتسمع منه أمثال قوله :

الجهل بالقانون لا يعفى من المسئولية ...
المتهم برىء حتى تثبت إدانته ...
أيأخذ العامل أجره بحسب إنتاجه ؟ أم بقدر حاجته ؟

وبينما كان الأستاذ شافعى متدفقاً فى حديثه ، والجمع حوله شاخص مشدوه ، إذا بضجة تتعالى فى ملتقى الشارعين ، فالتفت الأستاذ ناحية الضجيج ، فألفى الزحمة تتزايد ، والطريق تتعطل حركته . وما هى إلا أن قفز من مقعده ، واقتحم الزحام ، وأرهف سمعه يتعرف الخطب ، فعلم أن صبى لبان كان يسرع بدراجته الخربة عليها قوارير اللبن يوزعها على طلابها فى البيوت ، وفى ملتقى الشارعين صدمت إحدى سيارات الأجرة مؤخرة الدراجة ، فألحقت بها نوعاً من العطب ، وكسرت إحدى قوارير اللبن ، فوقف الصبى يندب سوء حظه ، ويتحسر على ما أصابه ، ويكرر على مسامع المتجمعين حوله خوفه مما ينتظره من حساب وعقاب ، على حين كان السائق يتصايح متهماً الصبى بجهله نظام المرور ، وحداثة عهده بسياقة الدراجات ...

وظل الأستاذ شافعى يدافع الناس بمنكبيه ، حتى بلغ مكان الخصمين ، فجعل ينقل بصره بينهما فاحصاً وهو يرقب مجرى الحوار ...

وأوشك الجمع أن ينحازوا إلى جانب السائق فيما أدلى به من حجة تنفى تبعته ... وكيف لا يصدقون رجلا يتربع على مقعده العتيد فى سيارة ضخمة يصور موقفه تصوير خبرة وتدقيق ؟ وكيف لا يكذبون ذلك الصبى الغرير الفأفاء الذى لا يحسن إلا الشكوى والتحسر والانخذال ، معبراً بذلك الوجه الشائه الذى تتخالف أقسامه حتى لتنأى به عن طلعة الانسان وتجعله أدنى إلى مرتبة العجاوات ، فلا يثير بشكله وبحديثه إلا السخر والاستهزاء ؟

وما هى إلا أن تقدم الأستاذ شافعى يجابه السائق بقوله :

— يجب أن نحدد المسئولية تحديداً واضحاً ياحضرة ... أنت فى سيارة ، وهذا الصبى فى دراجة ، والفرق جلى بينهما من حيث القوة على

الضبط والربط ، وإنه سابق لك وأنت من ورائه تراه ولا يراك !

ومسح صبى اللبان لعابه المتسايل على زوايا فمه ، ودعك أنفه المتنفش ، وحملق فى ذلك الشاب مشدوه النظرات ...

وصمت الجمع إنصاتاً إلى ذلك المدافع المنطيق بصوته الجهير ...

ودبت الحماسة بين جنبى الأستاذ شافعى ، فعلا بصدره ، وأصلح رباط رقبته المنتفخ ، ثم انتزع قلمه العتيد من جيب سترته الأعلى ، واندفع يشهره فى وجه السائق ، وهو يقول :

— القانون صريح فى تحديد المسئوليات ... إن ...

فقاطعه السائق متحدياً يقول :

— لا تدخل فيما لا يعنيك يا أفندى !

وأحس الأستاذ شافعى أن السائق يتحفز لشر ، فخشى المغبة ، وألفى قدميه تتراجعان ... ولكنه لمح شبح الشرطى يتخطر فى طريقه إلى الميدان ، فعاودته الحمية ، واستأنف قوله متصايحاً منتفخ الأوداج :

— كيف لا يعنينى ؟... أتعرف من أنا ؟

فأجاب السائق ساخر اللهجة :

— لم أتشرف بعد يا جناب « الحكمدار » !

فعقب عليه الأستاذ شافعى وقد ملك أعصابه ، قائلا فى تؤدة ، وهو يحكم مخارج الحروف :

— أنا السكرتير العام فى نقابة المحامين ، وعضو مجلس الادارة المنتدب...

وتراءى شبح الشرطى وقد تصيدت أذنه بعض ما تفوه به الشاب الثائر ، فاستشعر له شيئاً من التقدير ، ورآه يتجه إليه ، ويسترسل أمامه فى نبرات خطابية يشرح قصة اعتداء السيارة على الدراجة ، غالياً فى التفصيلات ، متحذلقاً فى التعليل والتأويل ، واختتم خطبته بقوله :

— القانون صريح ... من أضر بآخر لزمه التعويض !

وكان صبى اللبان قد انتبذ بدراجته مكاناً غير بعيد ، وعينه تنتهب الأستاذ شافعى ، وفمه ينفرج عن بسمة كريهة بلهاء !

واتخذ الشرطى سبيله إلى مكان الدراجة ، وقد اكتسى وجهه صبغة من التزمت والأنفة ، وراح يتفحص الدراجة كأنه خبير فنى يستشف بنظره حقائق ودقائق لا يعلمها إلا الأقلون ...

وما إن أتم بحثه وفحصه حتى انطلق إلى مكان القارورة يقلب النظر فى كسارها ، كأنه يستجلى غوامض مصرعها ، ثم داعب حطامها بحذائه الثقيل ، وما لبث أن ركله ركلة ألقت به عند حافة الطوار مجهزاً عليه ...

ورجع إلى السائق يقول عابس القسمات :

— خير لك أن تؤدى للصبى تعويضاً ...

وسرعان ما سرت فى الجمع همهمة استحسان لهذا الرأى ، وانقلب الجمهور فى لحظة ظهيراً للصبى يأخذ السائق بأن يؤدى التعويض ...

وألقى السائق نظرة على الشرطى ، فلمح شاربه يهتز انفعالا واستنجازاً ... وألفى شراذم من غلمان الطريق قد تحلقت حوله ، وتألبت عليه ، وإذا الأستاذ شافعى يتصايح معدداً ما لحق الصبى من أضرار ، وما على السائق من تبعات ... فلم يجد السائق مفيضاً من الاحتكام إلى الشرطى فى تقدير التعويض ، راضياً بما يكون من حكمه فى هذا الصدد ...

فأزاح الشرطى طربوشه إلى الوراء ، وفتل شاربه ، ثم نطق بقوله :

— أعطه عشرين قرشاً ... لقد أصاب الدراجة تلف شديد ...

دفع السائق هذا المقدار صاغراً ، وتناول الصبى النقود فاغراً فاه من دهشة واغتباط ، وصاح الشرطى بالجمع أن تفرقوا ... وسرعان ما انقشع الزحام ...

انطلق صبى اللبان يجرجر دراجته فى تسكع ، وهو ينظر إلى يده مطبقة على النقود ، فلم يكن لديه موضع آمن من هذه القبضة القوية ... أيأتمن على النقود جيبه المتهتك فى ذلك الثوب البالى المهلهل الذى لا يؤمن على شىء ؟

سار وقتاً لا يخطر بباله شىء ، ولا يفكر إلا فى مصرف هذا المبلغ

الضخم ... إنه أكبر مبلغ ملكه منذ عرف المال حتى هذه الساعة البيضاء !

وفيما هو على حاله ، يقدر ويدبر ، أحس شخصاً يتهادى على قرب منه ، وإذا هو الأستاذ شافعى ينظر إليه فى تلطف وهو يقول :

— ما رأيك ؟ أمسرور أنت ؟

فانبسطت أسارير الصبى ، وأطلق ضحكة شوهاء ، وقال :

— طال عمرك ، وبقى أولادك !

— يبدو لى أنك ولد رقيق الحال ... ما اسمك ؟

— الفولى ...

— ماذا تعمل ؟

— صبى لبان ...

— عند من ؟

— عند المعلم فتح الله ... ألا تعرفه ؟ الرجل ذو الشارب الغليظ ، والكرش العظيمة ...

وانطلق يوالى ضحكاته ، فأسكته الأستاذ شافعى باشارة منه ، وقال له فى جد :

— ماذا أنت صانع بالدراجة العاطبة ؟ وماذا أنت قائل للمعلم فى شأن قارورة اللبن المفقودة ؟

فنظر إليه الفولى ذاهلا يقول :

— لم أفكر فى هذا قط ...

— إنه سيطالبك بالعشرين قرشاً ، لأنها تعويض عن قارورة اللبن وعطب الدراجة ...

فبدا على وجه الصبى حيرة وتخوف ، وجعل يردد ، وكفه تزداد انقباضاً على ما فيها :

— كيف يأخذ النقود منى ؟

— هى من حقه ...

وحنا الفولى رأسه فى قنوط واغتمام ، وأخذ يردد :

— وماذا أصنع إذن ؟

— نبحث المسألة ، لعلنا نجد لك مخرجاً معقولا ، أنت بائس محتاج ، وأنا مستعد أن أعينك على أمرك ...

فقال الصبى وقد شرق بدمعه ، ونظر إلى الشاب نظرات توسل وركون :

— طال عمرك ، وبقى أولادك ! ... أنا محتاج حقاً ... أنا يتيم ليس لى من أعول عليه ... وأنا أعمل عند المعلم بالقوت الضرورى ، ويا ليته راض عنى ، فلشد ما يضربنى ويخزنى ويهددنى بالطرد ...

واندفع يشكو ويتضرع ، راغباً فى طريقة يحتفظ فيها لنفسه بالنقود ... وراح الأستاذ شافعى يدور حول الدراجة متفحصاً إياها بعين الخبرة ، أو بالحرى يوهم الفولى أنه ذلك الفاحص الخبير ...

ثم همهم :

— ربما لاحظ المعلم عطب الدراجة ، فسألك عنه ، وربما غاب عنه الأمر ، وبذلك تنجو من حسابه وسؤاله ... أقوى النظر هو ؟

— عينه كعين الصقر ...

— هنا نقطة ضعف فى المسألة ... ولكن ثمة وسائل لانقاذ الموقف !

— بربك ساعدنى ...

وتشبث به الفولى ، فراح الأستاذ شافعى يعتصر جبهته برهة ، ثم واجه الصبى مباغتاً إياه بقوله :

— سألقنك بعض جمل قد تنفعك ... قل إن ما حدث كان قضاء وقدراً ، ولا راد لقضاء الله ... قل إنك سليم النية لم تضمر أى سوء ... قل إن السيارة حين اقتحمت الدراجة أقبلت أنت على الدراجة تحميها وتحمى ما عليها من قوارير ، حتى دمى جسمك ، وتمزق ثوبك ...

ووقف الشاب يتوسم الصبى لحظات ، ثم قال :

— يجب أن يدمى جسمك ، وأن يتمزق ثوبك ...

— كيف ؟

— أعاجز أنت عن أن تخدش نفسك وتشق ثوبك وتتمرغ فى التراب ؟

— أليس من هذا بد ؟

— لا بد من ذلك ، لا بد ... لا مخلص لك إلا بهذه الوسيلة ... إن المعلم إذ يراك على هذا النحو يشفق عليك ...

فابتسم الفولى ابتسامته العريضة ، وقال :

— أمرك !

وانتحى الأستاذ شافعى والفولى ناحية من الطريق مهملة ، وشرع الصبى يؤدى لنفسه مهمة الخدش والتمزيق والتمرغ ، وفق التعليمات المرسومة ، حتى بلغ من ذلك ما أراد ...

فما إن رآه الأستاذ شافعى حتى ربت كتفه ، وقال :

— أحسنت !

ثم تابع قوله :

— لا تنس أن تتدانى إلى الحانوت ، متخاذل المشية ، ذليل القسمات ، تتلوى من الألم ...

ثم استمر يشرح له الخطة ، ويلقنه الأجوبة ، ويزوده بالنصائح وبما يواجه به المفاجآت ...

وبعد أن وعى الفولى ما سمع ، تهيأ للمضى فى الطريق ، فنظر إليه الأستاذ شافعى مليا ، ثم تصنع ابتسامة الفطنة ، وقال :

— أراهن على أنك تريد منى أن أرافقك فى مهمتك ، حتى أخلصك من سطوة معلمك ! ...

فأجاب الفتى فى سذاجة :

— أبقاك الله ، وحفظ أولادك ... إن هذا لجميل منك ...

وهنا وقف الأستاذ شافعى وقفة حزم ، وقال :

— ولكن مسألتك أضاعت من وقتى ساعتين ، فماذا تبغى منى فوق

هذا ؟ لدى قضية مهمة لا مخلص من إنجازها ، وجلسة فى النقابة على أن أشهدها ...

فأخذ الفولى يتضرع قائلا :

— إنى خائف من المعلم ...

ولبث الأستاذ شافعى يمط شفتيه فى امتعاض ، مظهراً التردد والاحجام ، ثم بسط ساعده ، واستشار ساعة يده الخربة ، وداعب ذقنه لحظة ، وأخيراً قال :

— لا بأس ... دقائق أخرى من أجلك ... أنت ولد تستحق المساعدة ...

وابتهج الفولى بذلك الفوز ، فأقبل على يد الأستاذ شافعى يغمرها بقبلاته ...

وأخذا يتوجهان وجهة حانوت اللبان ، فقال الأستاذ شافعى :

— عليك أن تتقدمنى خطوات ، حتى لا يراك أحد معى فيرتاب فى الأمر ... إنى مراقبك من بعيد ، وسأتدخل فى الوقت المناسب !

وأخرج علبة لفائفه وفتحها ، ثم قذف بها فى عرض الشارع متسخطا يقول :

— ليس فيها لفائف !

فقال الفولى على الأثر :

— أذهب لأشترى علبة ؟

— لا مانع ...

وأخرج محفظته المنتفخة بالأوراق ، وألقى بصره عليها ، ثم زوى ما بين حاجبيه ، وقال :

— لا داعى للفائف الآن ...

— ولم ؟

— ليس معى إلا ورق مالى كبير لا يصرف هنا ...

قال ذلك ، وقد سلط عينه على كف الفتى يريد أن ينفذ ببصره إلى الريال المختنق فى قبضتها ... فقال الفولى وقد أحس النقود تضطرب فى يده :

— ربما كان من المستطاع صرف ورقة من الورق الكبير ... ألا نجرب؟
فقال الأستاذ شافعى محتدا :
— حسبى ما ضاع من وقتى ... أتريد أن تفوتنى القضية وجلسة النقابة ؟
— لا أحب أن أراك متضايقاً ، كما أنت الآن ...
فصاح به الأستاذ شافعى صيحة عنيفة :
— قلت لك إنى مرتبط بمواعيد ...
فوقف الفولى منكمشاً ، ثم أخذ يهرش رأسه ، وانسرح يفكر ، وهو يردد بصره بين قبضة يده يختزن فيها كنزه وبين الأستاذ شافعى يقف وقفته العصبية ...
وأخيراً لم يجد بداً من أن يقول :
— أذهب لشراء علبة وأدفع ثمنها مما عندى ... وحين تصرف الورقة ترد إلى الثمن ...
— ما هذا الكلام الفارغ يا ولد ؟
وتضرع إليه الفولى أن يقبل هذا الحل ...
وبعد تمنع ومناقشة أقبل الأستاذ شافعى ، فمد يده وانتزع النقود من يد الصبى ، وهو يقول :
— أفضل أن أشترى علبة اللفائف بنفسى ... اسبقنى وأنا وراءك !
وسار الفولى يجرجر دراجته المتداعية ، وقوارير اللبن يرتطم بعضها ببعض ، وكأنها تتساءل عن مصيرها بعد أن تغير البرنامج المرسوم لها كل يوم !...
تبع الأستاذ شافعى خطوات الصبى ، وكان كلما قطع من الطريق مرحلة ازداد عنه تباعدا ... وبين الفينة والفينة يلتفت إليه الفولى ليشعره بأنه أمامه يهديه السبيل ...
وازدحمت السابلة أثناء السير ، فلاحت الفرصة للأستاذ شافعى كى ينجو بالغنيمة ، ولكن عين الفولى لم تنم عنه ، فأفسدت عليه تدبير الهرب ، وأحس كأنه محصور يخضع لرقابة ذلك الفج الغرير !

على أنه اعتصم بالصبر ، وحث خطاه ، مزمعاً فى دخيلة نفسه أن ينتهز أول فرصة للخلاص من تلك الرقابة البلهاء !

ولكنه ما عتم أن ألفى نفسه قبالة حانوت اللبان ، حيث تهيأ الفتى ليلج بابه ، متخاضع الهامة ، ذليل الخطا ...

وكانت وجهة الحانوت بيضاء مغبرة قذرة ، وعلى عتبة الباب يتسايل الماء فيملأ البقعة بالأوحال ...

ومن خلال زجاج الوجهة يتراءى مصباح كهربى يتدلى فى نحو مبتذل ، ويتهافت شعاعه الواهن على تمثال رخيص شائه لحيوان أوضح ما فيه ضرع كبير ، لا تدرى أبقرة هو أم لبؤة أم هرة عجوز ؟

وخلف هذا شبح كتلة بشرية ضخمة غير واضحة المعالم ، يتعالى منها صوت متحشرج تشيع فيه رنة السخط ، ما أشبهه بخشخشة مذياع خرب !

لمح الأستاذ شافعى هذا المنظر ، وتناهى إليه ذلك الصوت ، فألفى نفسه قد انزوى فى ناحية يتطلع ويتسمع ، يدفعه الفضول إلى تعرف ما يكون . واستطاع أن يتابع فى صعوبة خلف زجاج الوجهة الكدر مشاهد الرواية بين بطليها : المعلم والصبى !

الكتلة البشرية تتحاحل ...

شبح الفولى عن كثب منها يتخاذل تخاذل الظل الناصل أمام الضوء الكاشف ...

الحشرجة تنقلب زمجرة حبيسة كزمجرة الاعصار حين يتهيأ للزفيف ...

الكتلة تنقض على الظل الناصل ، فاذا هو لا عين ولا أثر ...

الاعصار يعصف كأنه دوامة مواجة يضيع فيها صراخ الاستغاثة المضعضع ...

وما هى إلا أن انقذفت من الحانوت إلى الطريق تلك المزقة الآدمية التى تدعى الفولى ، ينبعث منها تأوه وانتحاب ...

وسرعان ما تهافت حول الصبى الصريع نفر من الفضوليين ، ما كاد

يتبينهم حتى انطلق يشكو لهم بأساءه وما حل به من ضرب وجيع بلا جريرة ولا ذنب ...

وكان يتطلع يمنة ويسرة باحثاً عن منقذه وأمين كنزه الثمين ، فلم يره على فرط التلفت والتصفح للناس ...

وعمرت الحلقة بعابرى السبيل ، وأخذ الناس يتذمرون ويتبادلون شعور الاستياء من صاحب الحانوت ، بعد أن تجلى لهم ما برح بالفتى من الآلام ، وما أصابه من جراح ...

فى هذه اللحظة بزغ المنقذ ... فاخترق الحلقة ، وشرع يتساءل ، وتطلق وجه الفتى ، وتهادت الكتلة البشرية الضخمة بشاربها الغليظ ، وهى تصيح بالجمع أن يتبدد ، فخطا الأستاذ شافعى خطوة إلى الأمام ، وقد علا بصدره ، وانبرى يسوى رباط رقبته المنتفخ يستمد منه الحمية والتشجع ، وقال :

— هذا الولد مظلوم ، خليق بالرثاء !

فأرعد المعلم قائلا :

— إنه أخبث مخاتل خداع !

— وهذه الجراح ؟ وتلك الكدمات ؟ ...

واقترب الأستاذ شافعى من الصبى يتحسس أوصاله ، وصاح ملتفتاً الى الجمع :

— يلوح لى أنه قد أصيب بكسر فى ترقوته ! ...

فهمهم الجمع :

— ترقوته ؟

والتفت الأستاذ شافعى إلى الصبى يقول :

— قم يا ولد ...

وما كاد الصبى ينهض حتى صاح الأستاذ شافعى :

— شد ما يتألم !

وفى هذه اللحظة سمع الصبى يجأر بالشكوى ويتوجع ...

وتابع الأستاذ شافعى قوله :

— إنه ليتعذر عليه أن يقيم صلبه ... انظروا إليه يتهالك على الأرض مثخناً بجراحه !

وما أسرع أن ارتمى الفولى على الأرض ، فواصل الشاب قوله :

— يا لله ! ... المسكين يكاد يفقد وعيه !

وما إن أتم قولته ، حتى تمدد الصبى خامد الأنفاس ...

وصاح الشاب يقول :

— هذا ما كنت أخشاه ... حقاً إن ترقوته قد كسرت ، وهذه أعراض انكسارها ... يجب أن نستدعى سيارة الاسعاف وإلا ... وإلا أفلتت فرصة العلاج !

طرقت هذه الكلمات سمع المعلم ، فبدا عليه التعجب والدهش، ولكنه ظل رابط الجأش ، متملكا زمام نفسه ، وافتعل ضحكة شنعاء ، قائلا :

— ماذا تقول يا أفندى ؟ أية ترقوة ؟ وأى إسعاف ؟

ومد قدمه إلى الصبى يغمزه ، ويقول :

— قم يا ولد ...

ولكن الفولى كان حريصاً على الاذعان لنصائح الشاب ، فلم يبد فى رقدته حراكا ... وكان وهو ممدود على أديم الأرض تكسو وجهه الجراح ، وتعلو ثيابه الأوحال ، حريا أن يستثير مشاعر العطف والاشفاق ...

فتعالت همهمة سخط وتغيظ بين جمهرة الناس ...

وقال أحدهم يوجه كلامه إلى المعلم :

— أليس فى قلبك ذرة من رحمة ؟ إن الولد يجود بنفسه !

فصاح الأستاذ شافعى وقد انحنى على الصبى يتحسسه :

— الحالة خطيرة ... أخشى أن يكون قد أصيب بنزف باطنى ... ألا أجد رحيما يسعفنا ببعض المنعشات ؟

فهرع جمع من الناس يحضرون الماء والخل ...

وأقبل الأستاذ شافعى على الصبى يدلكه وينشقه ، ثم تركه لبعض السابلة يتعهدونه ، وقصد إلى المعلم ، ووقف أمامه وجهاً لوجه ، وقد عقد حاجبيه ، وخطف قلمه العتيد المتداعى من جيب سترته الأعلى ، وجعل يلوح به قائلا :

— ألا تعلم أنك عرضت نفسك لمسئولية جنائية صريحة ؟

فغمغم المعلم ، وقد تغضن جبينه :

— مسئولية جنائية ...

— حقاً ... إنها لمسئولية خطيرة ، تزج بصاحبها فى محكمة الجنايات...

وهم المعلم أن يرفع الصوت مستنكراً ، فوجد الكلمات تختنق فى زوايا حلقه ، وكان الأستاذ شافعى يرقبه بالنظر الثاقب ، فلمح شارب المعلم الضخم المتشامخ يتهدل ويتطامن ...

فصاح على الأثر :

— لا أقل من سجن خمس سنين ... أو حسبت أنه لا حساب ولاعقاب؟

وأخيرا استطاع المعلم أن يقول :

— وحضرتك من تكون ؟

— ألا تعرفنى ؟

— لم يسبق لى شرف التعرف ...

— أنا السكرتير الخاص لنقابة الطب الشرعى ، وعضو اللجنة العليا للاسعاف ...

فأجاب المعلم مختلج الأنفاس :

— وسعادتك بماذا تأمر ؟

— لا شأن لى بالموضوع ... لا مصلحة لى قط ... على أن أبلغ الأمر للسلطات المختصة ... هذا كل ما يجب أن أعمله ، أما الاجراءات القضائية فانها تأخذ مجراها ...

فمد المعلم فتح الله يده إلى كتف الأستاذ شافعى ، وجعل يربتها فى ترفق ، ثم اجتذبه من الزحمة متلطفاً ، وهو يقول :

— تعال معى إلى الحانوت نتحدث على مهل ...

وسار به إلى الحانوت ، وواصل قوله :

— هذا الولد عندى كأحد أبنائى ، وقد ربيته ، وليس بعسير على أن أعالجه ، وأن أنفق عليه حتى يذهب عنه ما به ...

ودخل كلاهما الحانوت ، فعمد المعلم إلى الباب يغلقه ، وشوهد شبحاهما من خلال الوجهة الزجاجية ، وقد انتحيا ركنا قصيا ، وانبريا يتناقشان ويتحاوران ... ثم شوهدت الكتلة البشرية تدس خفية فى يد الأستاذ شافعى شيئاً لم يكد يلمسه حتى خفت حدته فى المناقشة ، وانقطع عن اللجاج .

وخرجا من الحانوت يظللهما الصفاء ...

وسمع الناس الأستاذ شافعى يخاطب المعلم بقوله :

— سأتولى الأمر بنفسى ، ولكن كن حكيما فى معاملة الغلام ، ولا تدع غضبك يسيطر عليك ...

وأمر باحضار مركبة من مركبات الخيل ، فلما حضرت حمل إليها الفولى ، ووثب الأستاذ شافعى يتخذ مجلسه بجواره ، ومضت بهما المركبة بين أخلاط الزحام ...

وما إن ابتعدت عن الحى ، حتى اعتدل الفولى فى جلسته ، وتطلع إلى وجه منقذه يبتسم ابتسامته البلهاء ، فزجره الأستاذ شافعى بنظرة حادة ، ثم استل من جيبه الريال العتيد ، ودفع به إلى الفولى ، قائلا له :

— خذ نقودك ...

— واللفائف ؟

— لا حاجة لى بها الآن ... حسبى ما أضعت من وقتى فى مشكلتك الأولى والأخرى ...

ترادفت على يوم هذا الحادث شهور ...

وظهر فى المنتديات وفى المجالس الكبيرة شابان تزينهما حلة أفرنجية ،

أحدهما حديد البصر يعنى برباط رقبته ذى العقدة الضخمة ويصلحها بين حين وحين ، وتراه يتحسس تارة قلم الحبر الثمين ذا الغطاء المذهب ، وهو مطل من جيب سترته الأعلى ... وبجوار هذا الشاب فتى يافع يلازمه ملازمة الظل ، لا تدرى أآدمى هو بحق ، أم هو من ذلك النوع البدائى المنقرض من سلالة الانسان ، ذلك الذى تخيله دارون حلقة الاتصال بين القرد والبشر ... فهو على الرغم من جدة حلته ، يبدو مختل الزى بلا هندام ، حركات شاذة فى النهوض والسير والتلفت ، وإشارات طائشة يبعثرها فى غرارة ، وابتسامة عريضة بلهاء تبتلع وجهه الشتيم ! ...

ولشد ما يبادره رفيقه بالتعنيف ، إذ يقول له :

— قلت لك دع هذه الابتسامة ، لا تضحك على هذا النحو ، متى تتعلم؟

فيتطلع إليه الفتى على حاله لا يكاد يشعر بما قيل له ، ويجيب ساذج اللهجة :

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— أريد أن تكون كخلق الله ...

— ألست من خلق الله ؟

— إنك لحيوان ...

— طال عمرك ، وبقى أولادك ...

وينفرج فمه أكثر من ذى قبل ، وتتوضح له ضحكة كأنها تثاؤبة بشعة ، فينظر إليه الشاب الأنيق نظر الاشمئزاز ، وتعتلج فى نفسه نزعة جامحة إلى صفعه ، ويلفى كفه تختلج ، ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه وقد قذف فى وجه الفتى ورقة مالية صغيرة ، وهو يصيح صيحة لامرة :

— حل موعد الطعام ، فاغرب عنى ، وأرحنى من طلعتك بعض الوقت ...

فيتلقف الفتى ورقته مغتبط النفس ، ويقول :

— لا حرمنى الله فضلك وإحسانك ...

— لا تتأخر ... يجب أن ألقاك فى الموعد ...

ثم يحسر كمه عن معصمه ، ويلقى بنظرة خاطفة على ساعته الذهبية الوهاجة ، ويواصل قوله :

— أمامك ساعة ... ستون دقيقة فقط ... أفاهم أنت ؟

— فاهم يا سعادة البك ...

— إن وقتى محسوب على ... القضايا يأخذ بعضها برقاب بعض ... فحذار أن تتخلف ...

— كان الله فى العون ...

— إن الله تعالى لم يشأ أن يعيننى بمعرفتى بك ... لقد زادت متاعبى منذ سقطت على ... ولكن ماذا أنا صانع ؟ أ ألقى بك فى عرض الطريق ؟ لك رزق ... إنما نطعمكم لوجه الله !...

— عمر الله بيتك !

— اذهب لشأنك ... وتذكر موعد اللقاء ...

ويخرج « شبه الآدمى » يقفز فى مرح ، تراوده شهوات الطعام وألوان المآكل ...

منذ يوم الحادثين التاريخيين : حادث السيارة وحادث المعلم فتح الله، تاحت للأستاذ شافعى فرصة تتجلى فيها مواهبه على نحو جديد...

فكر فى شأن ذلك الصبى ، فرأى أنه إن اتخذه تلميذاً يستخدمه فى مثل هذه الحالات أصاب منه رزقاً حسناً ...

وكان الأستاذ شافعى فطناً حصيفاً لا يتهور ، فهو لا يتقدم خطوة إلا إذا مهد لقدمه موضعاً ، فبدأ يصطنع الصبى على نحو يأمن معه الزلل والافتضاح ، واتخذ من حادثة المعلم فتح الله أساساً للعمل ، فسعى فى إلحاق الفولى بمحل آخر على نحو ما كان ، وأعاد تمثيل الرواية بعد أن أتقن تجربتها وأبدع فى إخراجها وزادها فصولا إلى فصول ، فقد كان الأستاذ شافعى مجدداً حقاً فى أساليبه ، لا يركن إلى طريقة واحدة فى الاعادة والتكرار ...

ولا يكاد ينفض يده من حادثة ، حتى يمضى بربيبه وصنيعته إلى صيد جديد ...

صدقت الحكمة القائلة بأن الحظ إذا واتى إنساناً ألفه ، فلم يغدر به ، وإذا أخلف لم يكن له من عود ؛ فالأقدار التى أخذت بناصر الأستاذ شافعى ظلت تمنحه العطف والتأييد ...

فقد وقعت يوماً حادثة ما أجدرها أن تكون محور تحول فى خطة ذلك الشاب المغامر ، إذ أصيب الفولى فعلا بصدمة سيارة كادت تتركه فى ذمة المنون ... فما أسرع أن رفع الأستاذ شافعى الأمر إلى القضاء ، فحكم له بتعويض أدته شركة التأمين التى كانت تضمن حوادث هذه السيارة ... فقد ثبت أن الصدمة تركت ما يسميه الطب الشرعى : « عاهة مستديمة » ولم تكن فى الواقع عاهة يأبه لأمثالها الفولى ونظراؤه من ذلك الضرب البشرى الذى هو عرضة للجلد والاحتمال ...

هنا انفتح لعين الأستاذ شافعى مجال تكمن فيه الذخائر والكنوز ، هذا المجال المبارك عنوانه :

« العاهة المستديمة ! »

وعلى كر الأيام اتخذ الموضوع منحى عملياً لا يخلو من خطر ، إذ وجد الأستاذ شافعى نفسه أمام ميدان يتطلب الجهاد فى جد وإحكام ، ولم يكن هذا ليعييه ...

وبذلك أصبح ذات يوم فألفى نفسه مروضاً حقا لهذا الحيوان شبه الآدمى ، مروضاً له على نهج مرسوم وخطة مقررة لغاية واضحة تمام الوضوح ! ...

وكان عليه أن يتذرع بالصبر والحلم وتكبد المشاق ، يغدق الرحمة والحنان أحياناً حتى يبلغ الأمر مبلغ التدليل ، ويقسو تارة أشد القساوة حتى يسوم ربيبه سوء العذاب ... فهو صيدلى يتخذ من الأدوية والسموم ما يلائم ملابسات الأحوال ، حتى يستطيع بذلك أن يحيل هذا الحيوان شخصية ماهرة تجيد اللعب فى مخاطر الحياة ، كما يجيد

البهلول قفزاته العالية يتطوح بها يمنة ويسرة فى حلقات الملاعب ...

لقد غدا الأستاذ شافعى فى حياته الجديدة مبتكراً مخترعاً ، يحتبس فى مكتبه ليرسم الخطط ، ويعد التجارب ، فاذا فرغ من رسمها وإعدادها عمد إلى صنيعته يلقنه الدرس ، ويريده على ضروب من التمرين ، ثم يجرجره معه كما يجرجر الصياد شبكته ، ويرمى به فى معمعان الحياة وعباب الأحداث ، ثم يجذبه فاذا هو مملوء الوفاض بالمغانم والخيرات ...

أما الفولى فكان يسلم قياده لأستاذه ، لا يعصيه ولا يخالفه فى أمر أو نهى ...

لقد وهب أستاذه كامل ثقته ، فلم تكن المخاطر تهزه أو تهوله ، ما دام أستاذه هو الذى يدفعه إليها دفعاً ...

لا مرية أن السلامة مكفولة مهما ينله من إصابات ، فما كان لأستاذه أن يريد به السوء ! ...

وأخذ الأستاذ شافعى يتنقل فى البلاد مصطحبا صنيعته ، لايستقر له قرار فى بلد واحد ، يرتاد المصايف والمشاتى ، حسبه أن يزج بصبيه فى المزالق والمآزق ، فلا تلبث المغانم أن تفىء إليه باردة طيبة لا تكلفه عنتا ... فعاش عيش المترفين المنعمين ، يلقى من مائدته فتاتا لربيبه الصبى ، فيلتقطه محبوراً تقر عيناه !

واتسعت مناطق عمل الشاب ، وازدادت المشروعات بين يديه ، فكان يؤثر منها أضخمها تبعة ، وأثقلها كلفة ...

وسارت الأمور على هذا النحو ، وتكاثرت فى جسد الفولى ألوان « العاهات المستديمة » فأصبح كالثوب المرقع ، بقيت فيه المزق ، ولعب بأصله العفاء !

وأصبح للفولى اسم ذائع الصيت فى المشافى والمصحات ، يقضى فيها من أيام عمره أكثر مما يقضيه خارجها من أيام السلامة والعافية ...

وكان ذلك مما يغريه بالمخاطر ويشجعه على اقتحامها ، فان عيش المشافى والمصحات أهنأ وأمرأ ، وإن حياته فى تلك الدور لهى حياة رفاهية

ومتاع ، إذ هو بين أيدى الممرضات يتعهدنه ويلاطفنه ويقدمن له أنظف الملبس وأطيب الطعام والشراب ...

وتعاقبت الأيام والفولى مطمئن بحياته ، رافه البال ، يعيش فى قفص من عاهاته المستديمة كما تعيش القوقعة فى محبس من صدفتها ، أو السلحفاة فى حصن من درعها الصخرية ...

ولكن الأستاذ شافعى لم يعد يشارك الصبى هذه الطمأنينة ، فقد سمع مرة من الجراح الذى تولى علاجه أن هذا الصبى لن يعيش طويلا إذا تعرض لصدمة أخرى ، فوقع هذا النبأ على الأستاذ شافعى وقوع الصاعقة ، وفكر فى الأمر مليا ، واضطر أن يخفف من وطأة المغامرات التى يورط فيها ربيبه ، وأحاطه بموفور الرعاية ...

وكان كلما خطر بباله أنه قد يفقد الفولى يوما ، شعر بصرح آماله يتقوض ، وتأمل فى نفسه ، فلم يجد أنه قد ادخر مما كسب شيئاً لمثل هذا اليوم ، اليوم العصيب المنتظر ... فقد كانت المائدة الخضراء ، ومناضد الشراب ، ومجالس الغوانى ، تتناهب كسبه ، فلا تبقى ولا تذر ...

هل من سبيل لانقاذه من تلك الكارثة التى توشك أن تحيق به فتسلمه إلى البوار ؟

كان مرة فى السينما فشاهد رواية إجرامية دارت أحداثها حول استغلال التأمين على الحياة ، فخلبه الموضوع ، وراقته الفكرة ، ومضى يتساءل :

أما يجوز له أن يتخذ من موضوع التأمين سلما لانقاذ مستقبله ؟

لم لا ؟

وجلس إلى مكتبه ، وقد علت سحنته تلك المسحة الشريرة ، وأحس من قرارة نفسه باعثا يحدوه على عمل فاصل وأمر محتوم ... إنها الورقة الرابحة الكبرى ، أفلا يقامر بها ؟... إن حياته كلها كانت حتى اليوم ربحا لا خسران معه ، فليجرب هذه المرة أيضا مواتاة حظه ، وإنه لعلى يقين أنه لن يتنكر له ...

عليه أن يضرب الضربة الحاسمة ، حتى تغنيه عن تلك المغامرات الصغيرة التافهة التى هى علالات عجاف !

فى هذه اللحظة طالعته صورة للفولى ملقاة على مكتبه ، وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن قسماته الحيوانية ، كأنه يذكره بفضله عليه ، فتأمل الصورة حينا بعين مغيظة ، وما عتم أن قذف بها بعيداً ، وراح يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة ...

الفولى ... من هو ؟ بل ما هو ؟ ... غر مأفون ، وسيموت يوما ، ما من ذلك بد ، فإذا إن تقدم به الأجل ؟ كثير غيره من كرام القوم وسراة الناس تجرى عليهم سنة الموت ، وهم فى ريق العمر ، وفى الصبا النضر ، ومع ذلك تسير الدنيا ولا تفتأ تسير !

الفولى ... إنه ميت لامحالة ... ولكن المهم من أمره إذن أن يموت فى الوقت المناسب على الوجه المناسب ، فيضمن لموته قيمة لا تضيع ، وإنما تكون جزاء لولى نعمته الذى انتشله من الحضيض ، ورفعه فى مراتب الحياة درجات ...

وانفرج الباب فى هذه اللحظة عن الفولى ، يخب فى حلته الجديدة غير المهندمة ، وهو يحيى الأستاذ شافعى بتلك الابتسامة المثيرة للأعصاب ...

فتدانى منه الأستاذ شافعى وربت كتفه ، وهو يقول :

— سنخرج معا ... أمتأهب أنت ؟

— أنا طوع أمرك ... إلى أين ؟

— سنمضى إلى بعض زيارات ... زيارات هينة ...

ثم أخرج من جيبه علبة لفائف ، ورمى بها نحو الفولى فى ملاطفة ومعابثة ، فلقفها الصبى وهو يترنح من طرب ...

مضيا ... متجهين إلى إحدى شركات التأمين .

وانقضى أسبوعان والأستاذ شافعى يصطحب ربيبه متنقلا به بين شركات التأمين يعرضه عليها مستشيراً إياها فى التأمين على حياته .

وكان يساوم ويفاضل ، ويستخبر مختلف الجداول المزدحمة بالأرقام ، حتى استقر قراره بعد لأى على اختيار إحدى الشركات السخية فى شروطها ، وبدأت بعد ذلك إجراءات الفحص الطبى ، فطرح الفولى بين يدى الأطباء يقلبونه كما يقلبون البضاعة المزجاة ، متفحصين إياه فى عناية واهتمام وحذر ، واستعانوا فى فحصهم بتحليل الدم واتخاذ الصور لأوصال الجسم المختلفة ، والصبى فى أثناء ذلك لا يحاول أن يفكر فى اكتناه الغاية مما يرى وما يسمع ، حسبه أن يحس الغبطة والانشراح والاعتزاز بذلك الجمع المحتشد من حوله يشمله باهتمام ملحوظ ...

وبعد محاولات ومداورات حررت وثيقة التأمين ، فدسها الأستاذ شافعى فى جيبه فى عناية واحتراس ... وما إن ترك المكان حتى التفت إلى الفولى يقول له وعيناه تلتمعان التماعة الفوز والمرح :

— أتعلم ماذا كان من أمرك الساعة ؟

— ماذا ؟

فوقف الأستاذ شافعى يتأمله بعينى النسر الشره ، ثم قال :

— إن حياتك التى لم تكن تساوى قشرة بصلة يا سيد فولى قد أصبحت منذ اللحظة تساوى آلافاً من الجنيهات ...

فملق الفولى مبتهجاً ، مهتاج الخاطر ، ينشق فمه عن ابتسامته الكريهة البلهاء ، وهمهم :

— كيف ... كيف هذا ؟

— ذلك هو الواقع ... لقد رفعتك من لا شىء إلى كل شىء ، لقد جعلت لحياتك قيمة غالية ... افهم أنك أصبحت الآن عظيما ، عظيما جداً أيها الحيوان !

فتضاحك الفولى مترنح الأعطاف ، وقال :

— طال عمرك ، وبقى أولادك ...

هنا تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ صلة الفولى بأستاذه الشافعى ، مرحلة يلعب فيها القدر لعبته الكبرى ...

لقد أمن الأستاذ الشافعى على حياة الفولى بمبلغ ضخم ، وجعل نفسه وريثه الأوحد ...

لقد توضحت المسألة ...

إن الذى كان يخشى الأستاذ شافعى وقوعه قبل اليوم ، أصبح الساعة هو الذى يشتهيه ويتعجله ، ويرى فيه فردوس أحلامه ...

عليه الآن أن يعمل بجد ...

وسرعان ما شمر عن ساعد الاهتمام ، واستأنف مراجعته لمشروعاته ينمقها ويجيد إخراجها ويجملها بما يجعلها أحد وأمضى !

وتأهب الفولى لخوض المغامرات بعد فترة الراحة والاستجمام ...

كانت الخطط السابقة تتسم بالحيطة والحذر ، ولكن الخطط الحاضرة يتجسم فيها التهور والتعرض للتهلكة ...

وشرع الفولى يدرك ببصيرته الحيوانية ، بصيرته التى تنيرها غرائز الحرص على البقاء ، أن ثمة عنصراً جديداً قد اندس فى مغامرات اليوم ...

ولكن ما هو ؟

ذلك ما لم يستطع التفطن إليه والكشف عنه ...

وأحس يوماً فى إحدى المغامرات يد الأستاذ شافعى تدفعه دفعاً تحت عجلات السيارة ، على حين أن الخطط فى سوالف المغامرات كانت تلزم الأستاذ شافعى أن يظل بعيداً عن الأنظار ، حتى تقع الواقعة ...

وما هى إلا أن وجد الفولى نفسه فجأة يحجم ويتمنع ويتوقى ، فكان الاخفاق نصيب المغامرات المدبرة ، وتأصلت فى قلب الفولى مخاوف لم يكن يدرك تمام الادراك مأتاها ... فكان وهو على أهبة التقحم فى ميدان الخطر يشعر فى اللحظة الحاسمة بما يزين له التراجع والفرار ، فاذا هو قد جانب الميدان ، وأطلق ساقيه للريح ...

أثار هذا الاخفاق المتتابع غضب الأستاذ شافعى ، فكان يعنف ربيبه أقسى تعنيف ، ويحضه على الاقدام والتشجع ، ويسائله :

ماذا أصابه حتى فقد رباطة جأشه وخفة حركته ؟

فلا يجيب الفولى إلا بما ينطبع على وجهه من سهوم وحيرة وارتتاج ...

وكثيراً ما هم الأستاذ شافعى أن ينحى على ربيبه بالضرب الموجع ، ولكنه كان يراجع نفسه ، ولا يلبث أن يقبل عليه يلاطفه ويتملقه ، ويلاينه بمعسول الأمانى ... فكان الفولى يحدق فيه طويلا بعينيه الكابيتين الكئيبتين ، كأنه يريد أن يستكنه هذا الملق وما ينطوى عليه من سر ...

وسرعان ما ينخرط فى بكاء وانتحاب ، وتستبد به الوحشة والانقباض ، كأنه تائه يضرب فى بيداء ماحلة تعوى فيها الرياح ...

اختلت برامج الأستاذ شافعى كل اختلال ، وخلا إلى نفسه يتساءل فى أمر هذا الصبى المعتوه ، وما عراه من تغير حال ...

أى شىء أصاب الصبى حتى جعله يتخذ خطة أخرى فى مجابهة الصعاب وملاقاة المخاطر ؟

لقد كان من قبل مذعنا لارشاد أستاذه ، منجزاً لخططه فى استسلام واطمئنان ، لا تقصير ولا عصيان ...

فما خطبه اليوم يحجم ولا يبدو طيعا كما كان ؟

ماذا جرى ؟

هل أحس أن نية سيده قد تغيرت نحوه ، وأنه يأتمر به ليهلكه ؟

لا ريب فى أن الصبى هو هو ، فعقله هو عقله ، وفطنته هى فطنته ، ليس بقادر على أن يستشف مجهولا ولا أن يستبطن شيئاً مما غاب ...

أثمة وسيلة أخرى إذن غير العقل والفطنة تكشف عن البصائر وتجلو السرائر وتتوضح بها النيات ؟

أفى مستطاع الغرائز غير مستعينة بالعقل والادراك أن تستشف من حقائق الحياة وغيوب التدابير ما قد تعيا به العقول والفطن ؟

كان الفولى مستسلما مطمئناً ، يوم كانت نيات أستاذه الشافعى نحوه بيضاء لا تريد له هلاكا ، بل تبغى حمايته والاحتفاظ به ... ولكن

الصبى اليوم ينقلب إلى الضد ، فيتقيه ويحذره ويستريب به ، لا لسبب إلا أن الأستاذ شافعى فى سريرة نفسه التى لا يعلمها أحد ، قد فكر فى الخلاص من ربيبه ...

أترى الفولى بواعيته الخفية قد أحس ذلك الانقلاب فيما يهدف إليه أستاذه من أغراض ؟

عالج الأستاذ شافعى ربيبه بمختلف الذرائع وأشتات المغريات ، وإذ يضيق بأمره ذرعاً لا يجد بداً من أن يتقصده بالضرب المبرح والايذاء الأليم ...

فكان الفولى يحتمل الأذى فى صبر وجلد ، لا يروعك منه إلا كشرة ضارية تعلو فمه كما تكشر الذئاب المتأهبة للانتهاش ! ...

ولا يكاد الأستاذ شافعى يرى الفولى قد كشر عن أسنانه على هذه الصورة البشعة ، حتى يتقهقر عنه ، وقد أوجس خيفة منه ...

وانتهى الأمر بأن أعلن الفولى جهرة إضرابه عن تنفيذ أى مشروع يراد عليه ، فأسقط فى يد أستاذه الشافعى ، وذهبت محاولاته كلها أدراج الرياح ... وتلبس الفولى بعناد ، كما يعاند الحمار إذا حرن ، وتأبى أن يتزحزح عن موقفه مهما يكن من أمر ...

ونشبت بين الصبى ومروضه عداوة مضطرمة كان من العبث إخفاؤها ... وكان الأستاذ شافعى يكاشف صبيه بالعداء فى ضجة وعنف ، فأما الصبى فقد ظل منطوياً على ضغنه الخبئ ، يجلس الساعات الطوال فى ركن من الحجرة وحيداً يحدق فى الفضاء أمامه بعين تائهة حيرى ، وقد يفيق بغتة من غشيته على أثر رجفة تنتظم أوصاله ، إذ يتراءى فى مخيلته الأستاذ شافعى وقد عاجله بضربة على أم رأسه تسقطه مضرجا بدمه ...

وكم من مرة جمعت بينهما حجرة واحدة ... الأستاذ شافعى جالس إلى مكتبه ، وهو عابس ينتفخ ، والصبى متجمع فى ركن قصى يخالس أستاذه النظر ، فكلما تلاقت عيونهما ألفى الفولى نفسه يصر بأسنانه

صريراً لا يخطئه السمع ، وقد انفرجت شفتاه ، وتحفز للذود عن نفسه وحياطتها من كل مكروه ...

تواصلت الأيام والفولى غريق عناده وكآبته وصمته ، وبدأ الأستاذ شافعى يجد ريح الأزمة المقبلة ، فجن جنونه ، وأقبل على ذكائه يهزه ويعتصره ، ولكن عز المعين !

ومرة كان الغريمان على حالها فى حجرة المكتب ، وإذا الأستاذ شافعى ينهض واجف الأوصال من الغضب ، مكفهر الوجه من الغيظ ، وصاح بالفولى قائلا :

— تعال هنا يا ولد ...

فرماه الفولى بنظرة نكراء ، ولم يبد من حراك ...

فردد الأستاذ شافعى صيحته :

— تعال هنا يا ولد ... هل خرست ؟

فأشاح الفولى برأسه يأبى الاستجابة للأمر ، فخطا إليه الأستاذ شافعى ، فما إن رآه الفولى مقبلا حتى نهض دفعة واحدة ، فزأر الأستاذ شافعى قائلا :

— لماذا لا تطيع أمرى ؟

فهمهم الفولى فى صوت محتدم كظيم ، وقد علت وجهه سحابة كدرة مفزعة :

— هكذا فعلت !

— وإنك لتتوقح فى القول ؟

— هكذا أنا ...

فنفرت أوداج الأستاذ شافعى ، وألفى يده تتعالى ، ثم تهبط بصفعة عاصفة ، فاهتز لها كيان الصبى ، ولكنه لم يزل عن موقفه ، وكل ما كان منه أنه انقلبت عيناه بقعتى دم فائر... وهمهم وهو يصر بأسنانه صريراً يكاد يحطمها :

— لا تضرب ...

فتحمس الأستاذ شافعى ، وصاح مجلجلا بصوته :

— أضربك وأضرب شياطين أبيك ! ...

فتابع الصبى صرير أسنانه ، وهمهم :

— قلت لك لا تضرب ...

— إنك خارج الآن معى ...

— كلا ...

— قلت لك إنك خارج ...

— لن أخرج !

وارتفعت يد الأستاذ شافعى ، وما كادت تهبط بصفعتها حتى التقت بيد متحجرة جبارة تمسك بها فى قساوة وعنف ...

وسرعان ما التحم الخصمان ، وكانت معركة حامية الوطيس ، معركة تجرى على الفطرة ، كل خصم يحرص على أن ينال من خصمه جهد ما يستطيع ، بكل ما أوتى من قوة وشراسة ...

فكانت الضربات تتهاوى هنا وهنالك ، وكان الخمش والخدش يتناثران ذات اليمين وذات الشمال ...

وإن أحدهما ليقبض على خصلة شعر خصمه ، فلا ينزع يده إلا وقد اجتثها من أصولها ...

لقد توارت إنسانية الخصمين ، فلم يبق منهما إلا صورة الحيوانية الباغية الطاغية لا تعرف غير الضراوة والافتراس ...

وجرت المعركة لا يسمع فيها إلا هرير الأنفاس ، والارتطام بالحوائط والأثاث ، ووقع اللكمات والضربات ...

وتدانى الجسدان من الشرفة ، وسرعان ما اشتبكا فى عراك على سورها ، ثم ألفيا نفسيهما بغتة يسقطان متخبطين فى الهواء ...

ولم تكد صيحتهما تعلو ، حتى ذهب بها صوت سقطتهما العنيفة من حالق ...

فارتمى الجسدان هامدين !

وتجمع حولها السابلة ، وبعد حين تهادى الشرطى والناس حوله يصفون له ما وقع فى تضارب واختلاط ...

فى هذه اللحظة الهوجاء وقعت عين الشرطى على شىء أبيض يطل من جيب الأستاذ شافعى ، وكأن هذا الشىء يحاول جهد الامكان أن يفسح له مثابة فى عالم النور ليعلن وجوده فى وضوح ...

فاجتذبه الشرطى يتعرف ما هو ؟ فاذا هو غلاف كبير مكتوب على جبينه بالخط العريض :

وثيقة التأمين على الحياة !

٣

المستعين بالله ... الكابتن هاردى

حين اشتدت وطأة الغارات على العاصمة ، إبان الحرب ، وأحسسنا سحائب الهم والفزع تتعقد فى سماء حياتنا ، وتوترت الأعصاب أيما توتر ، فكر فريق منا أن يهجر القاهرة إلى بعض الأماكن النائية يطلب فيها الطمأنينة والأمن ، فكنت أحد السباقين إلى الهجرة .

وقضيت فى الضيعة بضعة أشهر ، أتتبع أخبار الغارات فى الصحف ، وأتلقط أحاديثها من الأفواه . وكلما علمت أن غارة روعت سكان القاهرة أو الاسكندرية ، وكان لها آثار وخيمة ، حمدت الله الذى وفقنى إلى المبادرة بسكنى الضيعة لأباعد بينى وبين منطقة الخطر ، فأكون منه بمنجاة .

ولكنى على الرغم من هذه الطمأنينة السابغة وجدت فى قلبى دبيب السأم يتزايد ، وجعلت أشعر بضيق من تلك الوحدة القاسية ومما يحيط بى من بيئة جديدة على ، فقدت فيها كثيراً من ألوان الرفاهية ، ونأيت فيها عن كثير من مظاهر حياتى الاجتماعية التى ألفتها .

وبينما كنت فى رونق الضحى أجلس فى شرفة الدار الريفية التى نزلت بها ، أغالب الوحدة وأنفى عن نفسى الملل بتصفح مجموعة من الأقاصيص ، إذ أقبل على الخادم برزمة البريد ، فتلقفتها منه فى شغف ، وانكببت على الصحف ألتهم أنباء الغارات ، فاذا الحالة تزداد سوءاً

على سوء ، فانقبضت نفسى ، ونحيت الصحف عنى ، وانصرفت إلى الرسائل فجعلت أقلبها بين يدى ، فاسترعى انتباهى منها رسالة راعتنى بغرابة خطها ، كأن كاتبها تلميذ مجتهد يحاول أن يظهر براعته فى حسن الخط . ولبثت أتأمل العنوان هنيهة ، ثم التمعت عينى ، وهمهمت :

— أممكن هذا ؟

وفضضت الغلاف متعجلا ، ثم بسطت الرسالة ، وما إن وقع بصرى على الامضاء حتى ابتسمت ، وبان لى أن ظنى لم يخب ، ورحت أقرأ :

« أيهذا الصديق العزيز

سلامى إليك طيب عطر ، ثم أحمد إليك الله جلت قدرته ، وأنهى إليك أنى نزيل مصر منذ أشهر ، وقد شهقت إلى رؤيتك نفسى ، فطلبتك فى الهاتف مرات ، وما حظيت مرة إلا بهذا الجواب المتكرر : أنت فى معزلك ، أو بالحرى فى مهربك . وإذ طال تنظرى لك على غير طائل استخرت الله فى أن يطالعك منى كتاب . وإنى مخبرك بمقامى فى الحسين ، وامتداد إقامتى فترة . فاذا فككت عن نفسك إسارها ، ورأيت عوداً إلى قاهرة المعز ، فزرنى بدارى «مغنى الرشيد» نتناول أقداحاً من الشاى الذكى ، ونتذاكر أحاديث الماضى الحبيب . ولتكن على ثقة بأننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان ، فلا تهولنك الأخطار ، وأقبل شجاعاً غير هائب ، والله راعيك .

أخوك : المستعين بالله هاردى

كابتن بالجيش . »

وطافت برأسى شتى الذكريات ... المستعين بالله ... المستر هاردى ... بل الكابتن هاردى ... صديقى المستشرق الانجليزى المسلم ، الذى عرفته متحمساً للشرق وللاسلام أكثر منا نحن الشرقيين المسلمين ...

وتوضحت لى على الفور صورة ذلك الصديق الكريم :

قامة مبسوطة ، ووجه مستطيل مشرق ، وبشرة وردية ناضرة ،

وعينان زرقاوان تروعان بصفائهما الشفاف ، وصوت هادئ خافت يلقى بكلماته فى تباطؤ وتنسيق ، يصمت بين الكلمة والكلمة كأنه يتخيرها من معجم فى رأسه ، ولهجة عربية تبين فيها فصاحة اللفظ ولكنها لاتخلو من عجمة محببة ...

وتوالت الذكريات والصور ... حى الحسين ... جولاتنا فى أسواقه نبتاع الطرف والتحف ، وجلساتنا فى نواديه نحتسى الشاى الأخضر ... وكان من عادة صديقى أن يتسمع فى هذه النوادى إلى الجلاس من مختلف الطوائف ، ويتصيد الألفاظ الغريبة فيقيدها فى دفتره الذى بليت أوراقه من طول الطى والنشر ، وتشابكت سطوره من تكرار الزيادة والتعليق ... وداره ، ذلك المبنى الصغير الذى أطلق عليه اسم « الرشيد » تبهرك منه السذاجة والطابع الشرقى الجميل ... وكان الصديق يتخذ هذه الدار مثابة كلما قدم مصر فى العام بعد الأعوام وأقرب عهدى به كان منذ أربع سنين ، ثم انقطعت عنى أخباره ، حتى خلت أنه ليس إلى عودته من سبيل ...

وقمت أذرع الشرفة جيئة وذهوباً والرسالة فى يمينى ، وقد هاجت فى نفسى عاطفة الذكرى لأيام رقاق قضيتها ناعم البال خلى الفؤاد . ورنوت إلى الرسالة ، فوقعت عينى على قول الصديق : « إننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان . » وما كدت أخطو خطوتين إلى مقعدى ، حتى أخذت عينى عنوانات على جبين الصحف تلفت النظر ، فيها بيان لما أحدثته الغارات من خسارة فى الأموال والأرواح . فقذفت بهذه الصحف مغيظاً ، وهمهمت :

— شد ما يغلون فى رواية الأخبار ...

وصحت مناديا الخادم ، فقلت له على الفور :

— احزم حقائبى ... سنرحل مبكرين إلى القاهرة ...

فقال لى مأخوذاً :

— والغارات ياسيدى ؟

— أتحسب أننا هنا ناجون من الأخطار ؟ ... الأعمار بيد الله !

وفى أصيل غدى كنت أغادر دارى فى القاهرة آخذاً طريقى إلى حى الحسين . ووقفت عن كثب من دار الصديق أتطلع إليها ، فألفيتها كما عهدت : الباب ذو المطرقة النحاسية ، وذلك اللوح المكتوب عليه بالخط الكوفى : « مغنى الرشيد » ، فأخذت بالمطرقة أدق الباب كما يفعل الطارق فى العصور الوسطى ... وانفتحت من أعلى الباب طاقة أطل منها رأس مسرور خادم الكابتن الخاص . فما لمحنى حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامته الأنيسة ، وحيانى متلطفا ، ثم شد حبل الباب ، فانفتحت مغاليقه ، فدفعت بخطاى داخلا ، فاذا الفناء الصغير كما عهدته رطبا مظلما يظلله عريش كرم عتيق . وجزت بتلك النافورة الساذجة وماؤها يقرقر كأنه يحيى القادم تحية الاستقبال .

ودلفنا إلى الدهليز الضيق تتدلى منه بعض قناديل ملونة ترسل أضواء محتشمة هادئة ... وقبل أن أصل إلى بهو الضيافة ظهر شبح صديقى المستشرق وقد بسط لى ذراعيه ، فتعانقنا عناق الود والمصافاة . وأخذ صديقى بيدى فسايرته إلى البهو ، وهو يخب فى عباءته الحريرية الهفهافة وقبائه الزاهى وذلك الخف الأحمر يخفق به على الأرض خفقات هينة كأنها همس أطياف ... واسترعى انتباهى فى نظراتى إلى الصديق هزاله وامتقاعه ، ومشيه متوكئا على عصا يظلع بعض الظلع ... ودخلنا البهو ، فجلسنا على الحشايا متقاربين . وصاح صديقى قائلا وقد ضرب كتفى بيده :

— ما قولك فى أنى عثرت فى مجريط على مخطوطة ديوان ابن زريق ، وقد استنقذتها من بين خرائب الحرب الأهلية ؟

فقلت دهشاً : ما أندرها تحفة ! ألا تمتعنى بالنظر اليها ؟

فزوى ما بين عينيه ، وسرح بفكره ، ثم همهم :

— تركتها فى دارى بلندن ... ولا أدرى ماهو حظها من كوارث الغارات هنالك ؟

فهززت رأسى أسفاً ، ثم قلت له :

— أما تاح لك أن تنقل بعض النقوش الأثرية الباقية فى أسبانيا من عهود الحضارة الاسلامية فى الأندلس ؟

وكنت أعلم أن لصديقى باعاً واسعاً فى الرسم والتصوير ، فقال لى وهو على حاله منسرح الخاطر :

لدى طرائف ولطائف استطعت أن أنقلها رسماً وتصويراً ، وهى الآن رهينة أقدار الغارات فى خزانة كتبى بلندن ...

ثم صمت لحيظة ، وقال :

— حينما جندت لخدمة الجيش ، ونقلت إلى القاهرة ، لم أستطع أن أحمل معى شيئاً من كتب أو مذكرات أو صور ... جئت هذه المرة أحمل الحديد والنار !

وسمعته يصيح بخادمه مسرور :

— علينا بالشاى .

فقلت له :

— إنى لأعجب لك كيف تتكلم عن الحرب والضرب ، وما أراك إلا كسابق عهدك فى مغنى الرشيد تتقلب فى أحلام الشرق الهانئة . وها هو ذا مسرور ما زال قائماً بخدمتك !

فابتسم ابتسامة ساخة ، وقال :

— أنا فى إجازة مرضية، أقضى فترة النقه بعد علاجى من جراح أصابتنى .

ثم أشار إلى موضع فى ساقه ، وواصل حديثه يقول :

— لقد أرادونى على أن أنزل الجيزة أو حلوان ، فقلت لهم دعونى أستجم فى حى الحسين ، أنشق عبير الراحة فى مغنى الرشيد ، وأملأ سمعى كل انبلاج فجر بسماع الأذان يهز نفسى هزاً ، ويرنح أعطافى طربا ...

ثم ابتسم ابتسامة وضيئة رحيبة ، وقال :

— ما أجمل أن يقضى الانسان عمره فى ذلك الجو الساحر ، جو ألف ليلة ... إنى لأشعر بأنى أعيش حقاً !

وعلا بصدره يملأ رئتيه بالهواء ، فتناولت سبحة كانت منا عن كثب ، وطفقت أعبث بحباتها وأنا أحدق فيها ، ثم قلت خافت النبرات :

— ولكنى أرى أن شيئاً ينقصك ...

— أى شىء ؟

فتباطأت هنيهة ، ثم قلت وأنا بالسبحة أعبث :

— ينقصك شهر زاد !

ورفعت عينى إليه ، فألفيته يصعد نظره فى عرض الحجرة صامتا ، وهو يتكلف ابتسامة شاحبة ، ثم جمجم :

— شهر زاد ؟ ويحك من مهذار ! ... أنى لى بشهر زاد هذه ؟

وغشينا الصمت برهة ، ثم استأنف يقول وقد تزايلت ابتسامته ، فى صوت متخافت كأنه آت من مكان سحيق :

— شهر زاد ؟ إنها بعيدة ! ... بعيدة كل البعد !

وأردت أن أتبين ما يعنيه وما يحاول أن يخفيه ، فابتدرنا مسرور قادما بصينية الشاى يتخطر بجسمه المتكتل الضخم وعمامته الطويلة التى تكاد تلامس السقف . فوضع الشاى بين أيدينا وانصرف يزلزل الحجرة بخطواته الثقال ...

وصب صديقى الكابتن الشاى فى الأقداح ، وأخذنا نحتسى على مهل ، ونحن فى صمت ، كأننا فى شغل بالشراب !

وجعلت أنقل بصرى فى الحجرة أتفحص ما حوت ، فوقعت عينى على صورة لم أكن قد لاحظت وجودها ، صورة وجه نسوى ... ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هو عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود رقيق النسج يكاد يشف عن ملامح وسمات . فنهضت إلى الرسم أتوسمه مليا وقد خلبتنى هاتان العينان بحورهما الساحر وأهدابهما الوطاف ... ورجعت إلى مجلسى فاحتسيت جرعة من قدح الشاى ، وأنا أقول :

— صورة رائعة ، لقد تجلت براعتك فى التصوير ياصديقى !

- أترى ذلك ؟

— أمن وحى الخيال هى أم من عالم الواقع ؟

فصمت متشاغلا بصب الشاى ، ثم قال مهمهما :

— من وحى الخيال ...

ألم تستلهم السمات من نموذج حى ؟

— قلت لك : من وحى الخيال ...

وشرد ذهنه كأنه يتحرز من متابعة الحديث،فأقبلت على قدحى أشرب منه ،وقد خيم علينا الصمت بعض الوقت .فقلت أصل ماانقطع من الكلام:

— ظننت أن شهر زاد تعوزك فى «مغنى الرشيد» فاذا هى تحتل منه أعز مكان !

فأطلق ضحكة غامضة ، وقال وهو يتلاعب بملعقة فى يده :

لا وقت عندى لشهر زادك ياصديقى المهذار !

— كيف تنفق يومك ؟

فجمع إليه ما انتشر من قبائه ، ثم نزع قلنسوته ، وأخذ يسوى شعره الأملس ، ويقول :

— إنى أستجم ، لاأبرح الدار إلا فى الندرة .

— ألا تمل هذا النمط من الحياة ؟

— إذا شعرت بحاجة إلى التسلية ، فعندى مسرور يفكهنى بنوادره اللطاف ... وقد أخرج ليلا فى ضوء القمر أطوف بالمساجد ، ثم أعود إلى الدار مقبلا على المطالعة ...

— وماذا تقرأ ؟

— أراجع نصوص شعر العباس بن الأحنف ... إنه زادى كله فى هذه الأيام ...

— مالك ولهذا الشاعر ؟ إن ديوانه ينفح وجداً وصبابة !

فسرح صديقى بصره لحظة أمامه ، وقال :

— إنى لأقرؤه لسهولته وعذوبة شاعريته ، لا لوجده وصبابته ... فما لى بالحب شأن !

— ومعجمك الأحمر ، كيف حاله ؟

فسنحت على ثغره ابتسامة ، وهمهم :

تقصد الشيخ جاد الرب أستاذى ... إنه بخير ...

— عجيب أن أسألك أنت ضيف مصر عن رجل تجمع بينى وبينه مدينة واحدة ... أتصدق أنى لم أره منذ زرته معك آخر مرة كنت أنت فيها بمصر ؟ أعلى حاله هو لم يجد فى شأنه جديد ؟

فأخذ صديقى يعيد القلنسوة إلى رأسه ، ويحكم وضعها على فوديه ، متمهلا فى عمله ، مطيلا لوقته . ثم قال ، منحرف البصر عنى :

— إنه كما تعهد ، لم يحدث له شىء ذو بال ، إلا ما كان من أمر تافه ...

— ماذا ؟

— زواجه ...

— عجباً ... أيتزوج وهو شيخ فان ، نصف بصير ، نصف سميع ، نصف حى ؟

— هذا ما وقع ...

— من تكون تلك التى رماها به القدر ؟

— نور العين ... ربيبته ...

— الطفلة الغريرة التى كنا نضيق ذرعاً بمعابثاتها ؟

— أحسبتها تظل طفلة أبد الدهر ؟ لقد غدت فتاة يافعة ... إنها تستقبل عامها السابع عشر ...

— ألم يذرف الشيخ على السبعين ؟

— لا بأس ... لقد كفلها طفلة ، وألف أن تتعهده بالخدمة ، ولم يكن يقيم فى البيت سواهما ، فلما قاربت طور الشباب لم يجد الشيخ بداً من أن يبنى بها ، فهو كما تعلم حريص على أن يصحح دينه ويبرئ عرضه ...

واسترخى صديقى فى مجلسه ، وأشعل غليونه ، وراح ينفث الدخان وئيداً مسبل الجفنين ...

وعادت الذكريات تطوف برأسى ، ولاحت لى مشاهد من زيارتى

قديماً لبيت الشيخ فى صحبة الصديق المستشرق ، إذ كان يقرأ عليه بعض الكتب ، ويدرس معه بعض النصوص ...

كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمة ، فنجده غريقاً بين كتبه ، تشرف عليها عمامته الحمراء الضخمة ، رمزه العتيد الذى لايتزايل عنه مهما جد من أحداث ومهما تعاقب من أجواء ... ولا نكاد نطمئن فى مجلسنا إليه حتى يصفق بيدين هزيلتين صائحاً بصوته المختنق :

— القهوة يانور ...

وما هى إلا أن تحضر نور العين حاملة صينية عليها إبريق تحف به أقداح بلدية ، وموقد يتوهج فيه الجمر وتتعالى منه سحائب البخور ، ثم تتربع عن كثب من الشيخ ، وتبدأ فى صب القهوة ، وتقديم الأقداح مرة بعد مرة ... وهى صبية سمراء فوارة العينين مراحاً وحيوية ، كثيراً ما كانت تختلس إلينا النظر ونحن عاكفون على الدرس بين قارئ ومستمع ، فاذا آنست من أحدنا غرة رمته بحبات اللب أو الفول وهى تخفى بين طيات خمارها الأسود ما يغلبها من الضحك ، وتتشاغل باذكاء الجمر أو ملء الأقداح !

وبينا أنا فى فيض من هذه الذكريات إذ تقابلت نظراتى ونظرات صديقى المستشرق وهو يتابع تدخينه ، فسمعته يقول همساً كمن يحلم :

— ما كان أكثر معاكساتها لنا !

وأمسكت عن الكلام فترة أحدق فيه ، وقد راعنى أننا كنا أثناء صمتنا فى رحلة على جناح الذكريات نسبح فى آفاق ماض حبيب . ثم قلت :

— والآن ، كيف هى ؟

— تكاد تكون فتاة أخرى غير التى نعرف ...

وشغل صديقى بوضع الطباق فى غليونه وإشعاله . وفى هذه اللحظة قدم مسرور يرفع من بين أيدينا صينية الشاى ، وهو يقول لسيده :

— أذكرك بالموعد ... لقد أزف ...

فقلت لصديقى على التو :

أعلى موعد أنت ؟

— لاعليك ... إن هى إلا زيارة غير محتومة لصديقنا المعجم الأحمر لبعض مطالعات يمكن إرجاؤها ...

فنهضت قائلا له :

— بل تذهب لطيتك ، فاذا أذنت رافقتك على مألوف العادة ... إنها فرصة أغتنمها لتحية الشيخ ، فانى لم ألقه منذ زمن مديد ...

فقال وقد لمح شعثه ناهضاً :

— يسعدنى أن تكون معى !

وتهيأنا لمبارحة القاعة ، وفيما نحن منصرفان لاحظت أن صديقى يسترق النظر إلى الصورة المعلقة ... ومضينا إلى الباب يخب صديقى فى قبائه ، ويكور على قلنسوته عمامة بيضاء أنيقة ... وخرجنا نجتاز الدروب الملتوية نخوض فيها الظلام الذى كان طابع الحياة الليلية فى ذلك العهد — ونحن صامتان نستبين الطريق فى محاذرة واحتراس ... وبعد لأى بلغنا مأوى الشيخ ، فأخذ صديقى يقرع الباب هنيهة ، فانفرج مصراعه كأنما تحركه يد ساحر ، ودلفنا إلى دهليز تطارد ظلامه فلول من الضوء يبعثها قنديل منكمش خزيان . وفيما نحن نعانى وحشة المكان إذ فاجأتنا سعلة هزيلة متصلة الحلقات صاحبت خطانا تؤنسنا حتى باب الحجرة ، وقد انفتح منه جانب يتسلل خلفه ضوء شحيح ، وتهب منه رائحة التبغ ... وصفق صديقى الكابتن تصفيقة خاصة ، فسمعنا صوتاً متداعى النبرات يقول :

— أهلا وسهلا ...

فدخلنا القاعة ، فاذا هى فى غبرتها وضيقها وحلوكتها ... كومات من الكتب تتراءى وسطها عمامة ضخمة حمراء تبتلع وجهاً معروقاً ضئيلا أكثره لحية شعثاء ... ودنوت من الشيخ أذكره بنفسى ، فتناول يدى وأبقاها بين يديه وهو يحملق فى بعين كليلة محمرة تجردت من

الأهداب . وقال فى صوت لم يصف بعد من بقايا تلك السعلة الكريهة :

— أهلا بصديقنا الهارب ... أكذلك تنسانا دهراً ؟

فقلت وأنا أشد على يده :

— حقاً ، غبت عنك طويلا ، ولكن عذرى فى ذلك ما أحاط بى من مشاغل ومهام ...

— ألم تستكمل بعد دراستك لشاعر المعرة أبى العلاء ؟

— ماذا يستطيع أن يفعل ذلك الفيلسوف الحكيم فى وقت روعت فيه النفوس واضطربت الحياة ؟

فهمهم صديقى الكابتن ، وقد اقتعد حشيته القديمة فى مكانه المألوف :

— إن أبا العلاء ينتظر زوال الحرب ليخرج من مخبئه ، وينفض التراب عن لحيته !

فقال الشيخ متضاحكا :

— أخشى أن يستبد النوم بأبى العلاء فى محابسه ، فلا نستطيع إيقاظه بعد ... طالما رغبت إلى صديقنا أن يذكى همته لانجاز تلك الدراسة ، ولكنه يتمادى فى تكاسله ...

فقلت وقد اقتعدت حشيتى المعهودة بجوار كومة من الكتب :

— سأستمع لنصحك ... ادع الله لى أن أوفق ...

وصفق الشيخ تصفيقته التراخية ، وصاح ما وسعه جهده بصوت خشيت ألا يبلغ عتبة الباب :

— القهوة يا نور ...

وجذب من جانب حشيته كتاباً أبلاه الطى والنشر ، ثم قال لصديقى الكابتن :

— لنبدأ من حيث وقفنا أمس ...

وانطلق يتحدث عن شاعرية العباس بن الأحنف وغزله ، مستشهداً بمقطعات رقاق يحفظها له . فكنا نسمع مأخوذين بطلاوة حديثه ، ودقة بحثه . وبينا نحن فى نشوة السماع ، إذ أحسست حفيف ثوب ، فأرسلت

نظرة خفية نحو مصدر الحفيف ، فطالعتنى على الفور عينان دعجاوان تحتهما لثام أسود هفهاف ، فشعرت بهزة تنتظمنى ، وألفيتنى أختلس النظر إلى الكابتن ، فوجدته مطأطىء الرأس ، يعبث بأطراف عباءته ...

وقصدت نور العين مجلسها عن كثب من الشيخ كما كانت تفعل ، ووضعت الصينية بابريقها وأقداحها ومجمرتها يتطاير منها عبق البخور ، ثم شرعت تصب القهوة وتوزعها علينا قدحاً بعد قدح ، والشيخ ماض فى حديث العباس بن الأحنف ينشد من رقائق غزلياته وهو يتابع أنفاسه فى جهد يستدر الاشفاق . وعلى الرغم من روعة حديث الشيخ لم أكن أوالى الانصات له ، إذ كنت فى الفينة بعد الفينة أرسل النظر إلى هاتين العينين الدعجاوين اللتين يخفق دونهما الخمار الهفهاف ، فيخيل إلى أنهما عينان معلقتان فى الفضاء لايتصل بهما وجه ولا جسد ... نبعان عميقان يزخران بالأسرار الغامضة ويفيضان بالأحلام العذاب ... ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديقى الكابتن ، فما رأيته إلا متجمعا مسترخياً فى جلسته يعتمد ذقنه بيده فى إطراق ، وكأنه فى غيبوبة روحية يهيم فى آفاق مترامية ...

وترادفت اللحظات ، ونحن فى هذه الدنيا الغريبة : صديقى مسترسل فى حلمه السحرى يكاد لايفيق ، وأنا فى جلستى أدير النظر حولى فى هوادة واسترخاء ، وهاتان العينان المعلقتان فى الفضاء كأنهما نجمان يحاولان بلألائهما أن يفضيا إلينا فى جنح الليل بكنه الحياة ، وهذا الصوت الذى يردده الشيخ يبدو كأنه همهمة أشباح تنبعث إلينا من مكان سحيق .

وبغتة أفقت من غفوتى على ضربة أوقعها الشيخ على كتاب أمامه وهو يقول :

— أليس مما يدعو إلى إكبار هذا الشاعر الفذ أنه عاش حياته للحب ، ووقف شاعريته على الحب ، ومات وفياً صفياً للحب ؟ ...

ما أروع قوله :

سلبتنى من السرور ثيابا وكستنى من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا فتحت لى إلى المنية بابا
عذبينى بشىء سوى الصـ ـد فما ذقت كالصدود عذابا

فقلت :

— لم يكن العباس إلا قلباً يخفق صبابة ، وروحاً تشف نقاء !

فسمعت صديقى الكابتن يهمهم ، وهو على حاله مطرق :

— ما أعظم فداء هذا الشاعر الفذ فى سبيل حبه وقلبه !

واستأنف الشيخ يروى من شعر العباس فى نغمة متساوقة ، وأحسست الثوب يتحرك ، وإذا بالعينين المعلقتين فى الفضاء تأخذان طريقهما إلى الباب ، وإذا بالكابتن يعلو بهامته يشيع الشبح الغارب بنظرات خاطفة ...

وغابت نور العين عنا كما قدمت ، لم نحس لها من حركة ولم نسمع من صوت ، كأنما هى طيف هبط علينا حينا ثم تزايل عائداً إلى عالمه المستور !

ولم يطل مكوثنا بعد ، فنهض صديقى يستأذن شيخه ويضرب له موعد اجتماعهما القادم ؛ وتركنا الدار لندخل تلك المتاهة من الدروب الملتوية والحارات المستغلقة السابحة فى عباب الظلمات ، وكنا نلتمس الطريق كأننا نسير مدفوعين بهدى الفطرة ، ونحن صامتان ، كلانا محلق فى أخيلته ، مشغول بعالمه ... وتمادينا فى الصمت ، وكان الهواء حبيساً كثيفاً زاد من وطأة الوحشة ، فأحسست الحاجة إلى الاستئناس بحديث الرفيق فى الطريق ، وكأنه شعر بمثل ما شعرت به ، فأخذ يضغط يدى ويلاطفها ، كأنه يستعيض بذلك عن الكلام ... وتبين لنا أننا خرجنا من المتاهة إلى شبه ساحة لم يتوضح من معالمها إلا مآذن تشرئب بقاماتها الممشوقة إلى العلاء ، كأنها تحاول أن تتخلص من عالم

الظلام والصمت واحتباس الهواء ! ... ووقف صديقى يحدق فى تلك المآذن السامقة وقد شغفت قلبه ، وإذا بصوت حلو النغم يشق ذلك السكون منشداً :

كيف أسلو ومقلتى كلما لا ح بريق تلفتت للقاكا
كل من فى حماك يهواك لكن أنا وحدى بكل من فى حماكا

وجعل الصوت يرجع فى نشيده ، ونحن إليه بقلبينا نهفو مستمتعين بعذوبة الانشاد ، ثم تزايل الصوت وئيداً يطويه السكون والظلام ...

وخيل إلى أن المآذن كأن هاماتها تتضاءل وتقصر ، وألفيت نفسى وصديقى نتحرك عائدين إلى المتاهة نضرب فى الحارات والدروب ... وعاد الصمت يلقى علينا أثقاله ، وأنفاس الهواء تزداد احتباساً وكثافة ، والظلمات يتراكم بعضها فوق بعض طبقات ، ويد صديقى تلتمس يدى وتضغطها بين حين وحين .

ووصلنا إلى « مغنى الرشيد » فاجتزنا الباب ودخلنا البهو المعهود ، وجلس كل منا إلى حشية نواجه معا صورة العينين ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف . ولبثنا فترة موصولة أعيننا بهاتين العينين . وهمست قائلا :

— فى هاتين العينين تجمعت معان من الطراوة والاستكانة والفتور !

فقال لى صديقى الكابتن فى صوت هادئ النبرات :

— إنهما عينان لطيف بعيد ... طيف بعيد غاية البعد ... ليس إلى الوصول إليه من سبيل !

وهنا أسبل جفنيه ، وكأنى به قد أسلم نفسه لسلطان الكرى ...

وكنت أزور الصديق المستشرق فى الفينة بعد الفينة ما واتتنى الفرص ، وكان يؤسفنى أنى لست بمستطيع أن أجيبه إلى ما يطلب من تواصل الزيارات ، إذ كان يحس أنه فى حاجة إلى ، فى حاجة إلى من يأتنس بوجوده فى دنياه التى اختارها لنفسه ، دنيا الحيرة والوحدة ؛

وإلى من يفضى إليه بما يضيق به صدره من سر دفين ... ولكنه على الرغم من ذلك كله لم يكن لينفس عن نفسه بكلمة ، ولا يفتح صدره عن مكنون ، بل كان حيران فى صمته المضطرب لايزيد إذا اشتدت به الحال على أن يضغط يدى ويلاطفها فى حنو ورفق ...

ولم يجد فى برنامج حياتنا جديد : جلساتنا الهادئة فى « مغنى الرشيد » ترعانا هاتان العينان ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف ، وزوراتنا لذلك المعجم الأحمر نستمع إلى ثرثرته الفياضة فى شعر العباس بن الأحنف حيث تقبل علينا نور العين بخفيف ثوبها حاملة صينية القهوة عليها الابريق والأقداح والمجمرة الطيبة الشذا ...

ومرة خرجت وصديقى فى نزهتنا الليلية ، فقصدنا الساحة ذات المآذن السامقة ، نرعى السماء وقد تناثرت فيها النجوم المتألقة ؛ وبينما نحن واقفان فى صمتنا وعيوننا موصولة بالأفق البعيد ، إذ بنجم يهوى محترقا وقد سطع بريقه سطوعا يخطف البصر . ثم ما لبث أن ابتلعته غياهب الظلمات ... فقال صديقى وهو فى وقفته متطلع النظرات :

— ما كان أشد توهج ذلك النجم وهو يلقى بنفسه فى أحضان الليل البهيم ! ... إنى لأحس بذلك الليل وقد بسط للنجم ذراعيه ليضمه إلى صدره ضمة الأم الرءوم ! ... إن علماء الفلك ومن إليهم سيقولون فى مثل هذا النجم إن انفجاراً حدث فيه ، أو إن اختلالا وقع فى نظام الجاذبية ، فكان أن تهاوى النجم محترقا وأدركه الفناء ... ولكن لم حدث الانفجار ؟ لم وقع الاختلال ؟ لايدرى أحد ، وما كان النجم ليدرى ذلك المصير ، إنه أحس دفعة واحدة بتزلزل فى كيانه أعقبه اشتعال ففناء ... ليس فى الوجود شىء بقادر على أن يحمى ذلك النجم مما أصابه ... ثمة يد خفية تدير الكائنات لاتسمو إلى إدراكها العقول والأفهام ! ... ألسنا مسيرين فى هذا الكون لامخيرين ؟ ... علينا أن نذعن لما يمليه القدر بلا مكابرة ولا عناد ! ...

ثم أخذ بيدى ، فسرنا الهوينى ، وتابع صديقى قوله :

— أليست أعمر مرحلة فى حياة هذا النجم وأعظمها هى تلك اللحظات التى احترق فيها فوهب كل ما اختزن فى قلبه من حرارة وضياء ؟ إن ملايين السنين التى قضاها من حياته فى مسبح الفلك لتعد تافهة زرية إذا قيست بهذه اللحظات التى عاشها وهو يهوى محترقا فى الفضاء !... ما أجلها متعة وما أروعها حياة !... شبيه بهذا النجم إنسان يظل عمره جامد الحس باردة ، خابى الوجدان راكده ، وما هو إلا أن تنبعث فى أعماقه شرارة الانفجار فيلتهب باهر الضوء خاطف البريق !... لحظات يقضيها تحفل بمتعة الدنيا الخالصة ويكمن فيها سر الحياة الحقة لا يعدلها شىء فى الوجود !...

ثم غشيه الصمت ، فلم تنفرج شفتاه عن حرف ، كأنه يخشى أن يتسلل من بينهما سر كمين .

وتعاقبت الأيام ... ولاحظت على صديقى أنه لايزور الشيخ إلا لماما ، وأن شحوبه يتزايد ، وانطواءه على نفسه يتواصل ، وأن ذلك البركان الذى يحنى عليه ضلوعه يحتدم مضطرماً فلا يجد له من متنفس ... وكان صديقى إذا اشتدت به كربته خرج إلى تطواف بعيد الشقة تكل منه الأقدام ، حتى لقد نتغلغل فى رحاب الصحراء ونكاد نتيه فى شعابها الموحشة . وقد يتفق لنا أن نجوز بدار المعجم الأحمر ، فأرى الصديق يخفف من خطاه ، ويسير كأنه يطوف بأرجاء معبد أو مزار . وقد يرفع عينه قليلا إلى حيث نوافذ المنزل ينضح منها ضوء هزيل . ثم يحث خطاه إلى مغناه وقد بلغ به الجهد كل مبلغ ، فيلقى بجسده المتخاذل على الفراش !

ولما هالنى اشتداد الأمر به ، اقترحت عليه أن يستبدل بداره مسكناً فى حى آخر ينقله إلى بيئة جديدة وأسلوب من العيش جديد .

فقال لى :

— أتريد أن تسلبنى ما أنعم به مما بقى لى من أيام إجازتى فى هذا الفردوس ؟

فصحت به :

— أهذا تسميه فردوساً ؟ إنه الجحيم المستعرة ... إنك تذوب وتحترق على عجل !

فابتسم لى وهو يشد على يدى . ثم قال :

— لكل منا تفسيره لمعنى الجنة والنار ...

وأطرق برأسه وقتاً ، ثم قال :

— إنى أذوب حقا وأحترق ... ولكن الانسان فى بوتقة الانصهار تبرأ نفسه من النفايات ، ولا يبقى منها إلا الجوهر الخالص ...

وقصدت دار صديقى يوماً ، إذ كنت معه على موعد لقاء لزيارة شيخه المعجم الأحمر ، فقال لى :

— أنا اليوم مجهود ، فلتبق معى فى الدار لا نبرحها ...

واتخذ كلانا مقعده على الحشايا ، ونحن نتناول الشاى وندخن ، وكان أول ما استرعى نظرى أنى وجدت مكان الصورة خاليا منها ، فالتفت إليه على الفور أقول :

— أين شهرزادك ؟

فابتسم ابتسامة أسى كظيم ، وغمغم :

— لقد توارت !... استردها عالم الأرواح ... ألم أقل لك من قبل إنها طيف من الأطياف ؟

فملت عليه قائلا :

— زدنى إيضاحا ... ما هذه الأحاجى ؟

فرنا إلى بعينه الصافية الزرقة ، وظل وقتاً لا يتكلم ، ثم قال وقد ازور ببصره عنى :

— ألك فى أن تقرأ فصلا من رسائل إخوان الصفا ؟ انتهت إلى مخطوطة نادرة لبعض هذه الرسائل ...

فصعدت فيه بصرى فترة ، وقلت :

— وأين ابن الأحنف ؟

فرمى بنظره فى عرض الحجرة ، وقال :

— طويته ... فرغت منه ...

— وهل يطوى حديث الحب والغزل ؟

فأجابنى وهو على حاله مشرد النظرات :

— متى كان فى مقدورك أن تطوى حديث الحب والغزل فافعل ، تحسن صنعا !

وألفيته يستخرج مخطوطة الرسائل ، وأقبل يقرأ جهورى الصوت ، باذلا أكبر الجهد فى التفهم والتمعن والاستخلاص ، وألفيتنى أشاركه الدرس وأساجله الرأى . ومكثنا فيما نحن فيه كبير وقت ، وكان وجه صديقى يزداد احتقانا وعيناه يتوضح فيهما الجهد والكلال . وإذا برأسه يترنح رويدا ، ثم يسترخى على الحائط خلفه مطبق الجفنين .

وتوالت أيام وأنا أجد صديقى تنتقل به الحال من سىء إلى أسوأ ، فقد لبث رهين الدار لا يبارحها فى عشية أو غداة ، وعكف على رسائل إخوان الصفا يتعمقها أدق تعمق ، ويعنت نفسه فيها أبلغ إعنات ، وكأنه يريد ذلك لنفسه عن قصد ...

ولاحظت أنه كلما طاف بذهنى شأن الصورة ذات العينين الدعجاوين والخمار الهفهاف ، وحاولت أن أطارح صديقى الحديث فيها ، أراه — وكأنه فطن إلى مايدور بخلدى — يأخذ على السبيل ، ويشغلنى بأحاديث مختلفات تطوح بنا بعيداً عن ذلك الحديث ...

وطالت فترات صمته وإطراقه ، وتبين فى جسمه الضنى والنحول ، حتى لقد رأيت أصابعه تلازمها الرعشة حين تمتد لأخذ كتاب أو تناول قدح ... فأدركتنى رحمة لصديقى وإشفاق عليه مما حل به ، فأمسكت بيديه ، وقلت له فى عزم وتأكيد :

— لا أرضى لك هذه الحياة ... لقد صح عزمى على خطة فى شأنك ... سأحضر بعد غد لأنقلك إلى مسكن آخر رضيت أم أبيت ... نستطيع أن نسافر إلى الضيعة أو نقيم أياماً فى إحدى الضواحى الطيبة الهواء ..

فلم يعقب على كلامى بشىء ، ولم يزد على أن ربت يدى ملاطفا ، وهو يبعث إلى بابتسامة مستغلقة زادتنى حيرة إلى حيرة ...

وفى اليوم الموعود وفدت على « مغنى الرشيد » وقد انتويت أن أنفذ عزمى على نقل الصديق إلى مسكن آخر ، وما كدت أقارب الدهليز حتى أقبل على مسرور يزحم الممر بجسمه المتكتل وعمامته الطويلة التى تناطح السقف ، وقال لى مبادراً :

— لك عندى رسالة من سيدى الكابتن ...

وأخرج الرسالة من نطاقه ، ودفع بها إلى ، ففضضتها على الأثر ، وقرأت :

« صديقى الكريم :

كان من مقترحك على أن أستبدل بمثابتى مثابة أخرى ، فلم ينفتح لى من الرأى إلا أن أختار حومة القتال ، فربما أقدرنى الله على أن أقوم هنالك بعمل ذى جدوى . سأذكر لك كرم صحبتك ، وأشكر لك صفو مودتك . هل يسمح الدهر بأن نلتقى يوما ؟

محبك المخلص : المستعين بالله »

وبارحت الدار ، والرسالة فى يدى ، وأنا فى موجة من الذهول والأسى ، دون أن أبادل مسروراً أى لفظ ...

ومضى شهر لم أعلم فيه من نبأ صديقى شيئاً كثر أو قل ...

وبينما أنا يوماً فى مكتبى ، منصرف إلى بعض عملى ، إذ دق التليفون ، فاذا المتكلم على ما بدا لى جندى هندى يبلغنى رسالة مقتضبة يدعونى فيها إلى زيارة مستشفى الجيش البريطانى بالجيزة ... وما كدت أضع السماعة حتى خفق قلبى خفقة وله وجزع ، ونهضت من فورى عجلا إلى ذلك المستشفى . فلما بلغته ، واتخذت إجراءات الاذن بالدخول ، ذهب بى الحارس إلى حجرة الانتظار ، وكانت صغيرة بيضاء الأثاث بيضاء الطلاء ، تطل نوافذها على مروج وحقول . وكنت قلقا لا يستقر بى

المقام ، أذرع الحجرة تارة وأقف أمام النافذة تارة أخرى ... وبعد وقت دخل على ممرض طلق المحيا أبيض الحلة يلتمع نظافة وأناقة ، وقال :

— صديقك ينتظرك ... أرجو ألا تطيل زيارتك ... لقد أجريت له حديثاً عملية جراحية ذات خطر ...

وخطونا إلى حجرة المريض ، فاذا هى حجرة مسدلة الأستار يشيع فيها الدفء ، وفى ركن منها سرير تبينت بين أغطيته ومفارشه وجها بالغ الشحوب شديد الامتقاع ، وجهاً لم يكن بالغريب على ... وتقدمت مضطرب الخطو ، فقابلتنى العينان الزرقاوان وقد زيدتا صفاء حتى ليكاد الناظر يستشف خلفهما طيف تلك الروح الوادعة الحنون ... وتخايلت على ثغر الصديق ابتسامة رفيقة ، واضطربت شفتاه بصوت مهزول راعش :

— لقد سمح الدهر بأن نلتقى ...

ولا أدرى على وجه التحقيق بأى كلام أجبت ، ولكنى أذكر أنه استل يده من بين الملاحف ، وأخذ بيدى يشد عليها ، فشعرت بكفه مقرورة غير متمالكة .

ووقفت صامتاً أحاول أن أكسب وجهى مظاهر الرضا والاطمئنان ، حتى أخفى عن صديقى ما راعنى من حاله ...

وبعد قليل ترك يدى ، وراح يتحسس بأنامله طيات وسادته ، فاذا به قد أخرج صورة صغيرة يحتويها إطار أنيق ، ثم راح يتوسمها لحظات ... ورأيته يسبل جفنيه ، وتتراخى يده ، فانحدرت الصورة منها حتى استقرت على موضع قلبه ... فاختلست النظر إليها فاذا هى عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود هفهاف ... وخيل إلى أن هاتين العينين الحالمتين ، وهما ترنوان إلى ، كانتا نديتين تتحير فيهما قطرات من دموع !

٤

عندما تبصر القلوب

كنا ثلاثة من الأصفياء جلوساً تحت عريش فى حديقة ساذجة بمغنى أحدنا رشوان .

نحن هنالك فى أرباض مصر الجديدة نشرف على ذلك الخضم العسجدى الزاخر فى الصحراء المترامية الأكناف ...

وأقبل خادم الدار ، يرفع عن المنضدة أقداح القهوة ... وفيما هو مدبر عنا ، قال :

— أأضىء المصابيح يا سيدى ؟

فأجاب رب الدار ، وهو يحدق أمامه فى زحمة الظلام الزاحف على الصحراء :

— كلا ...

وانصرف الخادم توارى شبحه عتمة الطريق ...

والتفت إلينا رشوان قائلا :

— ما أروع الظلام أيها الرفاق وما أجله ! ... إنى لأوثره على النور فى مثل هذه المجالس الهادئة ، ندير فيها تلك الأحاديث العذاب التى تقتضى جوا من السكينة والصفاء لا يهرج فيه ولا ضوضاء !

كان مضيفنا يلقى بهذه الكلمات وهو مطوف ببصره حوله فى الفضاء ، تهيم به النشوة ، وكأن وجهه فى قسماته الحيية وجه عذراء .

فهمهم حسنى يقول :

أنت على حق ... إن موضوعنا هو الحب ، ومن أولى من الحب بجو ساج تشيع فيه المساترة والتحرز ؟

وأخرج حسنى علبة لفائفه ، وهم أن يأخذ منها لفافة ، فابتدره رشوان بقوله :

— أتريد أن تخدش ستر الليل بجمرة لفافتك ؟

فأدخل حسنى علبة لفائفه فى جيبه ، ونهض بقامته الفارعة الرشيقة ، ووجهه الطويل الدقيق ، ووضع يده على مسند مقعده ، وقال :

— أنت فى هذا محق ... لن أخدش ستر الظلام !

وأخرج سبحته يعبث بحباتها ...

وغشى الصمت هنيهة ، فقلت :

— إنى أخشى أمراً ...

فقال رشوان :

— ما ذا تخشى ؟

— طلوع القمر ...

— لو طلع لنم علينا حقا ... إن ضوءه ليكشف أدق الخوالج ، والحب لا يلائمه إلا الغموض والخفاء ... لهذا القمر وسوسة مهما تكن عذوبتها فانها فيما أرى تشوب السكون المنشود ... هذا الملك أعده متطفلا يقحم نفسه دائماً فى مثل هذه الخلوات ...

— علينا إذن أن نكمل حديثنا قبل أن يفجأنا ذلك الواغل ليشركنا فيما نحن فيه ...

— أية مرحلة بلغنا من مراحل الحديث ؟

— كنا نضع تعريفاً للحب يكشف حال المحبين ... ما زلنا فى حيرة من أمر الصيغة التى يتم بها التعريف !

— حقا إننا لأغرار ... من لغو الحديث أن نحاول وضع تعريف

حدود لتلك العاطفة السحرية التى لا تحد ... إن أية لغة من لغات العالم ليعز عليها أن ترسم لهذه العاطفة حدوداً ومعالم ... الحب لغة القلب ونجوى الضمير ...

فخطا حسنى بضع خطوات ، والسبحة فى يمينه ، تتوالى حباتها بين إصبعيه ، وقال :

— فى مكنتى أن أضع تعريفاً أقرب إلى تمثيل الحب للأذهان ... وأمسك لحظة ، ثم استأنف قائلا :

— ليس الحب أكثر من قوة كهربية ... وما قلب الرجل إلا « بطارية » موجبة ، على حين أن قلب المرأة « بطارية » سالبة ...

فغمغم رشوان :

— قوة كهربية ؟ «بطارية» ؟ أتريد أن تقحم الحب فى مجال العلوم وميدان الصناعات ؟

— إنى لفاعل ، وما فى ذلك ضير ... إن القوى الكهربية لتتصل بكل شىء ، حتى إنها لتتسلل إلى القلوب والأرواح ... وهل يقوم كيان الوجود إلا على الذرات الكهربية والتفاعل بينها ؟

— حسناً ، فلتشرح لنا كيف يتولد الحب فيما ترى ؟

— هين من الأمر ، الحب قوة كهربية سياحة هائمة فى الأجواء والآفاق ، لا تفتأ تهيم وتسيح حتى تقتنصها « بطاريات » القلوب ، وليس كل ما يتصل بالحب من ألوانه وظواهره وتقلباته إلا من أثر تلك المولدات الكهربية ونوعها وما هى عليه من تفاوت فى التكوين والاستعداد ...

فقلت ، وأنا أرنو إلى حسنى فى عجب :

— وهذه القوة الكهربية التى تصفها : كيف تقتنصها القلوب ، وهى هائمة شرود ؟ أفى مستطاع كل قلب أن يقتنصها ؟

— إن الأقدار تلعب فى هذا الشأن لعبتها الكبرى ... إذا شاء القدر ألقى إليك وإلى من كتب أن تكون شريكتك

فى الحب بهذه القوى ، فسرعان ما يقتنصها القلبان ، وسرعان ما يتصل التيار ...

فهمهم رشوان :

— والعين ؟ ألا حظ لها فيما يكون ؟

فأجابه حسنى :

— لها حظ ليس بالموفور ... ربما أحببت دون أن تتوضح لك صورة من خفق لها قلبك ... وهل يستعصى الحب على من يفقد النظر ؟... للقلب بصيرة نيرة نفاذة يتضاءل إزاءها لحظ العيون . فلا غرو أن تقع فى شأن الحب أحداث تبدو غرائب ومعجزات تضل فيها العقول ...

فترددت على شفاهنا همسات تعجب وتساؤل :

— أية غرائب ؟ وأية معجزات ؟

فقال :

— فى المثل ما يغنى عن طول النقاش ... سأقص عليكما ما حدث لى، وفيه لكما مقنع ...

ورجع حسنى إلى مكانه ، فاستوى على كرسيه ، وشرع يقص قصته رانى العين إلى ما يحيط بنا من أستار الدجى ...

قال :

— الحق يا صديقى أنى لا أدرى كيف أجلو لكما حقيقة ما وقع لى : أحب هو بمعناه الأصيل ؟ أم عاطفة طارئة هى ؟ أم نزوة من نزوات الغريزة وفلتة من جماح الشباب ؟... وإنى أرى على أية حال ما جرى لوناً من ألوان الحب ، مظهراً من مظاهره ... وإن تفرد بالشذوذ عن المألوف !

ولقد بلغ من غرابته أنى أكاد أكذب حسى ، وأنكر ذاكرتى ... ولكننى على الرغم من ذلك أرى تلك الحادثة تبدو واضحة جلية ، وإن تمت مشاهدها فى لجة الليل !...

إنها قصة الظلام والخفاء ...

كان ذلك منذ سنوات ، يوم كان الثغر الاسكندرى هدفاً للغارات الجوية تزعجنا بها الطائرات المعادية بين حين وحين فى الأماسى !

وكنت حديث عهد بالانتقال إلى مسكنى الجديد ، أقيم فى شقة صغيرة تناسب عزبا مثلى يعيش وحده ... وكان عملى فى قسم الصحة ببلدية الاسكندرية يقتضى أن أمكث فى مكتبى معظم اليوم ، وطالما تناولت طعامى خارج البيت ، وما كنت أعرف من شئون جيرتى شيئاً ذا بال ، وإن علمت أن الكثير من سكان الدار ترحلوا إلى الريف نجاء بأنفسهم من الأخطار !

وتوالت بضعة أيام دون أن تروعنا الغارات ، ولكن فترة الأمان لم تطل ، فقد حدث ليلة أن صيحت صفارات الانذار بصوتها الأرعن تنعب ، فقفزت من فراشى ، وارتديت ملابسى على عجل ، وهرعت هابطاً الدرج إلى مخبأ الدار ، ولم يكن مخبأ مكتمل الأدوات وافيا بالغرض ، وإنما هو بهو أو شبه بهو عتيق مهجور استخدم مخزناً للأنقاض ، فأعد إعداداً سريعاً ليأوى إليه الهاربون من قذائف السماء !

وما إن دخلت فيه حتى ألفيت بعض الأشباح قد تجمعت فى ركن منه ، هذا يدعو ويتضرع ، وذلك يبدى الشجاعة ويطمئن جاره ، وهو أحق بالتشجيع والاطمئنان ، وآخر معابث يستهويه صوت القذائف ، فهو يتسمع ويهتز ...

وقد لبثت بجوار الباب مشغولا بأمرى عن متابعة اللغط والتصايح ...

وكان للمخبأ منفذان : الباب الذى أجاوره ، وشباك يتسلل منه بصيص من النور الأزرق منبعث من مصباح الطريق ... فكان هذا البصيص كل نصيبنا من النور فى مخبئنا الموحش ...

وما هى إلا أن ارتجت السماء بقصف القذائف ، فاشتدت الجلبة

وعلت الصيحات ، وتراجعت ملتصقا بالجدار أمسك بعوارض الباب .

ولم أكد أفعل حتى مست يدى كفا رخصة ، ولكن ما أسرع أن ارتدت هذه الكف حين شعرت بأنها مست يد إنسان ... وطالعت على الفور فى الشعاع الأزرق الشحيح وجها نسويا لم ألمح منه إلا معارف غير متوضحة ... ووقع فى روعى أنه وجه عذراء ... ولست أدرى على وجه التحقيق : أتبادلنا خواطف النظرات ؟ أم أن ذلك لم يقع !...

ورأيت الشبح يدلف ، ومن خلفه شبح رجل يدفعه ، وهو يهمهم راعش الصوت :

— لو طاوعتنى ورحلت مع أمك إلى الريف ، لكنت بنجوة مما ترين !

وانتحى الشبحان ركنا بعيداً عنى ، واستخفيا فيه ، فاندمجا فى ظلمته ...

وتواصل قصف القذائف فى شدة وعنف ... وما كاد ينفذ إلى المخبأ ضوء أحمر خاطف من أضواء القذائف ، حتى أحسست شخصا ينبعث من ركن الرفاق قاصداً إلى الشباك ، فيحكم إقفاله ، وهو يصيح :

— أغلقوا الباب ...

ووجدتنى أدفع مصراعه دفعاً ، فأطبقت على المخبأ ظلمة متلاحمة ...

وكانت القذائف ما برحت تقصف ، وتصايح الرفقة يتزايد ، وأنا فى موقفى بجوار الباب ...

إنه لشعور عجيب ذلك الذى استولى على فى تلك اللحظات ... اضطراب جامح يمتزج فيه الخوف بالجرأة ، والتخاذل بالتشجع ... ثورة عارمة جامحة !

وأحسست الأرض تزلزل تحت قدمى ، والجدران تميد حولى ... وأيقنت أن الدار ستخر ، وأننا بعد قليل هالكون تحت الأنقاض ...

وثارت بى رغبة فى الحياة متقدة ، ونزعة تدفعنى إلى التشبث بالعيش ... وطفح قلبى بشعور التطلع إلى الاستمتاع بمتعة غالية !

إن تلك المتعة لتتراءى لى شائقة خلابة تستهوينى أشد استهواء ... إنها لتتمثل لى كالطائر يوشك أن يخف بجناحيه ... فعلى اقتناصه قبل ضياع الفرصة وفوات الأوان ...

وتتابع وجيب قلبى ، وكأن ناراً تلتهمنى ...

وخطوت أسير ، أسير فى يقظة ونشوة ...

إلى أين ؟

كانت قدماى تدفعان بى دفعاً ، وتشقان بى الطريق ، تهديانى مسلكه ، وتقيانى العثار فى أكداس الظلمات !

وإذا بى أشعر بأنها هى تواجهنى ...

وفى لمح البرق دنوت منها ، ووجدتنى آخذ برأسها بين يدى ، وهويت على فمها بقبلة ظامئة متلهبة ... ولا أذكر ما ذا كان مبلغ استجابتها هى لى فى هذه القبلة ... وما أحسب أنى سمعت نأمة دفاع أو تمنع ، وإنما هى أنفاس حارة مشبوبة !

وعدت أدراجى إلى مكانى جوار الباب ، تغمرنى راحة ورضا ...

ولبثت لا أعبأ بشىء ...

كنت أحس إحساس الروح وقد تخلصت من ربقة الجسد ساعة الاحتضار ، وانطلقت أول ما انطلقت فى ذلك العالم الأثيرى الفسيح الخالص من قيود الزمان والمكان ...

وقفت وطال وقوفى ، تهيم بى الأحلام ...

وأنبهتنى يد تهزنى ، وصوت يقول :

— لقد أطلقت صفارة الأمان ...

فصعدت على التو إلى حجرتى ، وألقيت بجسمى على سريرى ، وطوحت بى غيبوبة حالمة .

وفى صبيحة غدى ، صحوت من نومى ، أفكر على الفور فى حادث الليل ... واستويت على سريرى ، وقد انسرح بى الخاطر إلى آفاق عالية نائية ...

أكان ما أذكره حقا ؟

أحدث أن قبلت عذراء المخبأ إبان الغارة الشعواء تحت أستار الظلام؟ أم هى أخلاط أوهام ، وأضغاث أحلام ؟

وخطر لى أن أسأل بواب الدار عن ذلك الأب الذى حل المخبأ وفى صحبته ابنته ... وهممت أن أفعل ، لولا أن ردنى عن ذلك وازع نفسى دفين ...

كنت أخشى أمراً واحداً ، هو قطع الشك باليقين ...

ما ذا يكون من أمرى لو عرفت حقاً أن الحادث الذى أذكره قد وقع صدقا لا وهم فيه ولا خيال ؟

وما ذا يكون من أمرى لو تبين لى أن نشوة الليل ومغامرة المخبأ لم تكن كلتاهما إلا باطلا من الايهام ؟

إنى لأحتفظ بتلك السعادة التى أسبح فى موجها الآن ، أستعيد متعة القبلة ، حقاً كانت أو باطلا ... وأهنأ بأن أرسم لنفسى صورة حسنائى كما يتطلع إليها خيالى !

كنت بهذا محبوراً ، لا أرجو المزيد .

وقضيت يومى على مألوفا لعادة خارج الدار ، أزاول عملى الراتب ، ولكن تلك الصورة الغامضة كانت تتمثل لعينى ، وتشغل أقطار فكرى : ذلك الظلام الموحش ، قصف القذائف المدوى ، زلزال الدار العنيف ، تصايح الرفاق المتواصل ، وتلك القبلة الطاغية الثائرة التى لم تعبأ بشىء ...

إنى لأحس وقدة القبلة تلتهب بها شفتاى !

وإن تلك الأنفاس الحارة لتصافح وجهى ، ويملأ وسواسها مسمعى !

وفى مستهل العشية رجعت إلى دارى ، واستلقيت على فراشى ، ألتمس الكرى ، وما كادت عيناى تطعمان النوم غراراً حتى بدأ عواء الصفارة يشق أجواز الفضاء ...

فاعتدلت على فراشى ، أصغى ولا أتحرك ...

وتلاطمت الأفكار فى رأسى ، وعن لى أن أبقى فى حجرتى ، لا أزايلها فى فترة الخطر ، وكأنى أتوقع خطراً أكبر إذا برحت الحجرة هابطاً إلى المخبأ ...

وكانت دقات قلبى تتوالى فى عنف ...

وأحسست كأنى أخوض معركة نفسية بين سلب وجذب ، وكأن حرباً تشن على لتردنى عن عزمى على البقاء !

ثمة حوافز تدفع بى ، وتملك على مشاعرى ...

ووجدتنى أترك فى سرعة فراشى ، وألقى كساء على كتفى ، وانحدرت على الدرج ، وكان الظلام دامساً ، فلم أكن أستبين طريقى إلا تلمسا وتخيلا ...

وتسللت أدخل المخبأ دون أن يحس بى أحد ...

لقد كانت القذائف ترج الدار رجا ، ولزمت مكانى الذى كنت فيه ليلة أمس ، وظللت أحدق فى غمرة الظلمة تحديقاً حاداً ، كأنى أحاول أن أخترق سجف الظلام باحثاً عن شىء .

وكنت أشعر على الرغم من صحوة نفسى بأنى مقبل على تخدر وفتور ، كما يكون حال المريض قبيل العملية الجراحية ، أشد ما يكون يقظة نفس حين ينشقه الجراح مخدراً يسلمه إلى رقاد عميق ...

ولبثت فى وقفتى أحدق وقتا لا أعرف أطال حقا أم قصر ... وما عتمت أن آنست طيفا يقترب منى ، ووجها يتدانى إلى ... وما هى إلا أن شعرت بأنفاس حارة تصافح وجهى ، وشفتين

تلتحمان بشفتى ... ثم تباعدت الشفتان ، وتزايل الطيف ، وأنا فى مكانى مسحور هيمان ! ...

وظللت فى موقفى لا أريمه ، وكأنى أنصهر وأذوب متطايراً فى آفاق فساح ...

ولم أثب إلى رشدى ، إلا حين لكزنى رجل ، وهو يصيح بى قائلا :

— لقد انطلقت صفارة الأمان ...

فسموت إلى حجرتى هين الخطوات ، ورميت بجسدى على الفراش ، وأسلمت نفسى إلى سبات أو ما يشبه السبات ...

وما كدت أستوى على سريرى فى صحوة غدى ، حتى اهتاج فؤادى ، وامتلكتنى حيرة ممضة ...

ثمة وجد وحنين يلهبانى !

إنى لأتعذب حقا !

وما فتىء الوجد والحنين يثوران بى ، حتى لم تعد لى باحتمالهما طاقة ...

فاستبدت بى فكرة ...

يجب أن أكتنه ذلك اللغز المحير العويص ...

يجب أن أعرف من هى غذراء المخبأ ...

وارتديت ثيابى على عجل ، وهرولت أقصد بواب الدار .

وبينما كنت أهبط الدرج ، طرق أذنى دوى القذائف ، فالتبس على أمرى ، وأرهفت السمع أستوضح هذا الدوى ... وما هى إلا لحظة حتى انبعث نعيب الصفارة ، فاختلط صوتها الحاد بدوى القذائف المجلجل ...

واشتد وقع القذائف كأنها تسقط على قيد خطوات ... وانتشر الفزع ، وتجاوبت الدار بهرج ومرج ، واستغاثة وتلهف ...

ولاحظت أن درج السلم يتداعى تحت قدمى ، والجدران تترنح حولى . . .

ووجدتنى أقفز على السلالم مثنى وثلاث ، وكان التراب يتساقط على كالمطر المنهمر ، ولم ألبث أن رأيت الأحجار تترامى ، والغبار يتكاثف ... وبلغ التصايح أشد مبلغ ، وأصابنى ذهول ، فلم أدر أية وجهة أسلك ؟ وأى طريق أتجنب ؟

و برقت الخواطر فى رأسى يشتبك بعضها ببعض ...

ليت شعرى : ما شأن الفتاة وأبيها فى تلك الكارثة السوداء ؟

وفى تلك اللحظة دوى صوت شديد عن كثب منى ، وتهاوى بجوارى جدار ، فشعرت بنفسى أهوى ، وأفقد وعيى !

ورجعت إلى يقظتى ، فوجدتنى فى حجرة ازدحمت بالجرحى ، بين معصوب الرأس ، أو مضمد الذراع ، أو مجبور الساق ...

فرفعت بصرى أتبين الأمر ، فمر بى فتى فى لبوس التمريض ، فاستوقفته قائلا :

— ما ذا ؟

فقال وهو يهم بمتابعة السير :

— احمد الله على أن كتبت لك النجاة ... إن جرحك هين !

وألفيتنى أفكر فى أمر ذى بال ...

أتراها بين النزلاء فى هذا المستشفى ؟

ونهضت من فورى أتحامل على نفسى ، وجعلت أتصفح الوجوه فى اهتمام وتلهف ، ورحت أسأل هذا وذاك ، فلم أعثر على طلبتى ، ولم أصل فى هذا الأمر إلى قرار تطمئن به نفسى ...

وبارحت المستشفى ، قاصداً دارى ، فما إن دخلت الحى حتى راعنى ما أصابه من تدمير ...

رقعة من الأرض يتعالى فيها الركام والحطام من أنقاض الأبنية والدور !...

وشخصت ببصرى أتبين المنزل الذى أسكنه ، فلم تقع العين إلا على أطلال ...

فوقفت مستنداً إلى جدار مهدم ، أتأمل هذه الرسوم ، وقد طوفت بمخيلتى مناظر وذكريات .

وطالما سنح لخاطرى هذا السؤال :

— ما ذا كان نصيبها من هذه الغارة الماحقة ؟

وما زلت حتى الساعة ألقى على نفسى ذلك السؤال ، ولا أجد السبيل إلى ما يشفى من جواب !

ولما بلغ حسنى من قصته هـذه الغاية ، شملنا صمت مديد ... وأحسسنا الظلمة حولنا ترق ، وقد شرع يعبث بها ضوء لجينى ... وإذا بوجه ذلك الطفيلى الأمرد يتراءى فى الأفق البعيد ، ترف على محياه إشراقه وضاحة ، وكأننا نسمعه يهمس :

— فيم كنتم تتحدثون ؟

فتلفت كل منا إلى صاحبيه ، نتبادل الأنظار ، وقد لاحت على وجوهنا بسمات هزيلة ...

ولـكننا مكثنا صامتين ، لا حركة ولا كلام !

٥

دنيا جديدة

غادر المنزل وقد بنى عزمه على أن ينفذ فكرته ...

وسار فى الطريق زائغ النظرات ، وفى رأسه أتون يتأجج . ولكن خطواته كانت متلاحقة محكمة تدل على عزيمة واقتدار ، كأنها خطوات جندى ماض إلى حومة القتال .

إنه يشبه الجندى فيما يقصد إليه من أداء مهمة وخوض معركة . ولكن الفارق بينهما أن الجندى يمضى وهو فى فسحة من الأمل أن يعود ظافراً يعانق الحياة ويقتطف ما فيها من متع ومباهج . أما هو فيسير فى مثل صلابة الجندى وعزمته ، بيد أنه يعلم علم اليقين أن ذهابه إلى غير رجعة ... خوض معركة يخرج منها مهزوماً قد طواه الردى !

ولكن كيف يعد نفسه مهزوماً إذا انتحر ؟

أليس الموت فى حقيقة الأمر أكبر انتصار على الحياة ؟ وماذا لقى من هذه الحياة ؟ إنها لحرباءة خبيثة ، طالما خادعته وغررت به ... هذه الحياة لقد كانت تتفنن فى الكيد له ، وتسخر من إخفاقه ، وتذيقه ألواناً من التعذيب والايلام ... هذه الحياة لقد كانت تركله وتطؤه ، فينهض محنى الظهر ، معفر الوجه ، ليخفض هامته ثانية لتلك الجنية اللدود ، فلا تلبث أن تنحى عليه بسياطها حتى يخر مثخنا بجراح الخيبة والاذلال ...

هيهات للحياة أن تنال منه منالا بعد اليوم ... إنه سيقف أمامها وجها لوجه ، ويقول لها : لن تستطيعى منذ الآن أن تستعبدينى وتستمرئى شقائى ! كلا لن تستطيعى أن تفعلى شيئاً معى ... ستقفين أمام رفاتى قليلة الحيلة عاجزة الوسيلة ... مهما تحاولى فليس فى مقدورك أن تلحقى بى أى أذى ! ... إنها ساعة انتصار لى ... أليس الموت فى حقيقة الأمر أكبر انتصار على الحياة ؟

وحث خطاه إلى حيث ينفذ فكرته ... ولكن أية جهة يختار ؟ إنه يدرى إلى أى ميدان يذهب ، ولكنه لايدرى أى مكان فى هذا الميدان يحل فيه ؟

بأى أسلوب ينتحر ؟

ما أكثر الوسائل ! ... أيختار « الترام » ؟ ومثل فى ذهنه « الترام » وهو يقطع الطريق مثقلا براكبيه ، كأنه أتان حبلى مكدودة ... أتان عجفاء نخرة العظام ... أيسلم لهذه الأتان رقبته طائعاً مختاراً ؟ أيرضاها لنفسه جلاداً ؟

هناك السم الزعاف ... هناك المدية الماضية ... هناك أفانين مما يكفل له بلوغ مأربه المنشود ... وأشرق وجهه بغتة إشراقة الظفر ... لم لا يكون النيل جدثه العظيم ؟ هذا الاله القادر الذى يتدفق منذ الأزل ، يشق الصحراء الجرداء فيحيلها جنات فياحة ناضرة ... إنه ليلقى بنفسه عن طيب خاطر فى هذا الفيض الزاخر بالخيرات ... ما أسعده حقا إذ يشعر بأن ذراعى هذا الأب الشفيق تضمانه إلى صدره فتخفيانه فلا يلبث أن يفنى فيه ! ... أى فخر أعز من أن يغدو جزءاً من ذلك الاله فى قوته وعظمته يشاركه فيما يغدق على البلاد من نعم وبركات ؟

لقد جرب حظه فى الحياة مرات ومرات ، فباء بالاخفاق المر ... هو الاخفاق دائما ... ذلك الوحش الهائل الذى تجمعت فيه كل مظاهر القسوة والعنف ، ذلك الحيوان الضخم الذى يماثل الحيوانات المنقرضة

التى عاشت قبل التاريخ ... إنه ليلاحقه حيثما حل ، يراه تارة رابضا أمامه وهو فى ساحة الامتحان يرمقه بالنظر الشزر ، ويبتسم له ابتسامته النكراء ، ويكشر عن أنياب قذرة مسنونة كرءوس الحراب ... ويخيل إليه دائماً أنه يسمع منه فحيحاً ، كأنه يقول له : هأنذا لك بالمرصاد !

هو الاخفاق دائما ... يعاجله أبداً فى كسب رزقه ، فى تحقيق مآربه ... وأخيراً وقد سقط مريضاً وطالت به العلة ، كان يرى ذلك الحيوان المنقرض ، حيوان ما قبل التاريخ ، وقد أرسل خرطومه يستنزف دمه على مهل ، ويستل روحه فى بطء ... لقد لازمه ذلك الحيوان فى مرضه ، ولم يدعه إلا خرقة إنسانية مهلهلة ، لاحيوية فيه ولا نشاط !

ماذا يستحق فى هذه الحياة أن يعيش من أجله ؟... إنه يحيا فى بيت خاله مع أسرته ، يحيا معهم كالغريب المنبوذ ... طالما قرع سمعه قول خاله : لوجه الله.أطعمك وآويك فالى متى ؟ وطالما تعالت صيحات التذمر والسخرية فيخالها دخانا كثيفاً يتعقد ويحيط به ، حتى لا يستطيع أن يتنفس ... وهذا الحيوان المنقرض ، حيوان ما قبل التاريخ ، مترصد له أبداً ، تتلاعب ابتسامته النكراء على فمه الغليظ الأدكن ، وهو يكشر عن أنيابه القذرة المسنونة كرءوس الحراب ...

وسار الفتى ، ثم سار ، حتى دنا من ضفة النيل ... إن النخيلات الشامخة بهاماتها الملوكية لترف بأغصانها ترحاباً بمقدمه ، وإن الشمس الغاربة بقرصها المتوهج لكأنها نار وليمة تشب لاستقباله ... النيل!... نعم ، النيل ... فى عبابه الزاخر يودع عالم الشر والفناء ، ويستقبل عالم النعيم والخلود ، وهو محوط بتلك الأناشيد العذاب ترددها له أطياف لا تراها العيون ، تلك الأناشيد التى لايسمعها إلا من أقبلوا على الأبدية بأرواح تخلصت من الشوائب ، وشملها الطهر والصفاء ...

وأصبح من ضفة النيل على قيد خطوات ... وأحس بقدميه تتثاقلان ، وقد بدأ يغشاه سحر غريب ... واختار مكانه الملائم ... ووقف هناك

وقفتـه الأخيرة وعينـاه تحدقان فى الأمواج المتـدفقة يحاول أن ينفذ إلى أعماقها ... ماذا وراء هذه الأمواج التى تتراقص على متن النهر ؟

وانبعثت ضجة غير بعيـدة منه ، فتلفت هنيهة حوله ... إنها حركة الطريق ... أناس بين غاد ورائح ، ومركبات تضج بعجلاتها ، وتصيح بأبواقها ... إنها ضجة الحياة ، ضجة الدنيا ... وابتسم ابتسامة هازىء ، ثم عاد يحدق فى الماء !

أحقا أن هذه الدنيا ليست جديرة أن يعيش من أجلهـا ؟ إن الناس من أجلها يعيشون ، إنهم يسعون إلى الرزق كادحين مجاهدين ... أليس هو مثلهم إنسـانا ؟ ألا يستطيع أن يسـعى كما يسعون كادحاً مجاهداً ؟ ولـكن هـذا « الاخفاق » ... هـذا الحيوان الهائل الـكريه ، حيوان ما قبـل التـاريخ ... إنه رابض فى طريقه يسـد عليه المسـالك ، ولن يستطيع هو بخور عزيمته أن يتغلب عليه وينحيه عن الطريق ... أفى مقدور بعوضة أن تساور الأسد الجبار ؟ إنه ليشـعر بالامتعاض والتأفف من نفسه . لماذا رضى أن يكون بعوضة ، على حين يرى الناس من حوله أسوداً ضارية ؟

وأطال التحديق فى الماء أمامه ...

وتحفز ليقفز ، فاذا به يسمع حركة طارئة ... حركة تصحبها همسات وأنات ... وتلفت حوله ، فتبينت عينه فى ظلمة الغروب شبحا يضطرب على حافة الشاطىء عن كثب منه ... وألفى نفسه يكمن خلف جذع شجرة ، وأخذ يرقب الشبح من مكمنه ، ويحد بصره ، فاذا الشبح فتاة تتعثر فى خطاها وبين يديها لفيفة تضمها إلى صدرها ضمة رحمة وحنان... وتوقفت الفتـاة ، وأطالت النظر إلى اللفيفة ، ثم مهـدت لها مـكاناً بين الأعشاب النابتة على حافة الشاطىء ، ووضعتها فى رفق ، وما لبثت أن انحنت عليها تقبلها فى شغف . ونهضت بغتة مندفعة صوب النهر ... وفى لمحة هوت فى الماء ، فانبعث لسقوطها صوت مكتوم مفزع ، كأنه صوت وتر فى قيثارة شد إلى أقصاه حتى انقطع ...

وألفى الفتى نفسه يهوى حيث هوت الفتاة ، ويغوص وراءها فى ذلك الخضم المتلاطم ... وبعد جهد ومغالبة استطاع أن يصل إليها ، وأن يعود بها إلى الشاطىء خائرة القوى فاقدة الوعى ...

وأخذ يسعفها بما هدته إليه الفطرة ، ونجح فى مسعاه ، فاذا الحياة تضطرب بين جوانح الفتاة . فوضع رأسها على ركبتيه ، وعيناه تتوسمان وجهها وقد بدأت مواكب الليل تتزاحم إثر النهار الغارب تطارد فلول الضوء ... ولكن تلك المواكب لم تلبث أن وقفت خاشعة أمام ذلك الملك العظيم الذى بدأ يعلو من الشرق قرصاً أرجوانيا يتهادى فى روعة وجلال ... فتصاغرت أمامه جحافل الليل الزاحف وأخذت تتزايل ...

وسطع الضياء الفتى على وجه الفتاة ، فاذا بمحياها هادىء لم يزده امتقاع الاعياء إلا وسامة على وسامة ... وكان شعرها البليل مسدلا حول رأسها تتناثر خصلاته على كتفيها ، وقد تدلت بعض هذه الخصلات تخفى ما ظهر من صدر ناهد كان قد شق القميص وأسفر !

ورفعت الفتاة جفنيها ، فاذا عينان زرقاوان تماثلان زرقة السماء الصاحية ، تختلج أهدابهما الوطاف حولهما كأنها أحراس ساهرون على ذلك النبع الفياض ...

ونهضت الفتاة برأسها قليلا ، وهمهمت جزعة : أين أنا ؟

فمسح الفتى على شعرها ، وقال فى لهجة ظفر ووثوق :

— أنت فى حرز أمين !

وتلاقت عيناهما فى ذلك الضوء الفضى الساجى الذى يشيع فى النفس الأمن والصفاء ... وجعلت الفتاة ترنو إليه فى سهوم ، وهى ما برحت فى شبه غيبوبة تختلط حيالها الحقائق بالأحلام ... وأطال الفتى نظره إلى عينها ، وأحس بأن هذا النبع قد أخذ يفيض بالخيرات ، وإذا هو يرى فيه عوالم جديدة ذات سماوات وأرضين لا عهد له بها من قبل ، وإنه ليسمع من ذلك النبع الفياض خريراً لم يمر بسمعه أبهج منه قط ...

ومرت على الفتى فترة ، وعيناه موصولتان بعينيها ... إنها لحياة

جياشة تتفتح له ، حياة بعيدة عن واديه القديم بقفره وجدبه ... واعتلجت فى رأسه شتى الخواطر والأفكار ... يا للعجب ! ... إن الله قد بعث به إلى النهر لينقذ حياة هذه الفتاة التاعسة ... هناك قوانين قاهرة لايستطيع المرء أن يقع لها على تفسير ... ألسنا مسيرين حقاً لا مخيرين ؟ ... لقد أنقذ روحاً ، روحاً بشرية من صنع الله ... أنقذ مخلوقاً من بنى جنسه ، رد إليه الحياة ثانية بعد أن أوشكت أن تفر عنه ... إنه غالب الموت فغلبه فى هذه المعركة ... إن الله أراد لهذه الفتاة الحياة ، فكان هو فى ساعته يد الله ! ... إنه يحس قوة الله فى جسمه ، وعظمته تسرى فى أوصاله ! ...

واهتز الفتى اهتزازة اعتداد بنفسه واعتزاز ...

وسمع الفتاة تهمهم :

— لم أنقذتنى يا سيدى ؟

فقال وعيناه ما زالتا موصولتين بعينيها :

— لم يكن لك أن تجرمى فى حق نفسك هذا الجرم ...

واستمع لصدى صوته فى نفسه ، فكأنه يستمع إلى إنسان آخر يتكلم ، كائن جديد ينطق فى لهجة جديدة !

أجابت الفتاة :

— وهل من العدل أن يحيا المرء فى هذه الدنيا يعانى الظلم ويشقى ؟

— ليس لنا أن نتخير ، بل علينا أن نصبر على ما نحن فيه ... ثم نجاهد ونكافح ونأمل ...

— لقد جاهدت ، فبؤت بالخيبة وفقدت كل أمل ...

— حاولى أن تخلقى الأمل خلقا ، وأن تتصيدى السعادة تصيدا ...

— حاولت فأخفقت ...

— حاولى أيضاً ولا تيئسى ... يجب أن يكون فى قلبك إيمان بأن الحياة ليست عبثا ...

— كيف ؟

— فكرى لحظة ... إن الله لم يخلقنا فى هذه الدنيا سدى ، وإلا فما هى حكمته فى أن يقذف بنا فى هذا التيار نصارعه ونصاوله دون جدوى؟ إن لكل منا رسالة يؤديها ...

— وهل لمخلوقة حقيرة مثلى رسالة ؟

— أحقر كائن فى الأرض له رسالة يجب أن يؤديها ، وإن خفى علينا وعليه أمرها ...

وغمغمت الفتاة :

— رسالة ؟ أنا أؤدى رسالة ؟

وبغتة تلفتت حولها متفزعة ، وصاحت :

— طفلتى !

وهرع الفتى والفتاة إلى مكان اللفيفة ، فألفيا الطفلة مدرجة فى لفائفها ، ناعمة العين بالنظر إلى القمر ، مبهورة بضوئه اللألاء ، تتحرك يدها فى فرحة ، وهى مستغرقة فى مناغاة ومناجاة ...

فالتقطت الأم طفلتها ، واحتوتها فى صدرها ، وجعلت تغمرها بقبلاتها الحنون ...

ثم شرعت تقص على الفتى قصة البؤس الذى دفع بها إلى القضاء على نفسها ... إنها قصة شائعة تتلخص فى كلمات قلال : حب ، فعبث بالفضيلة ، فافتضاح ، فطرد من بيت الأسرة ، فتخل من الحبيب ...

فأمسك بيدها يلاطفها وهو يقول ، وقد أشار إلى الطفلة يداعب وجنتها :

— ألا تعترفين معى بأن فى الحياة نواحى جميلة طيبة ، وأن الله لم يخلقنا فيها سدى ؟

كان الفتى قد ترك فى بيته كتاباً يخبر أهله بأنه معتزم التخلص من الحياة ، وكانت الفتاة قد تركت أيضاً فى بيتها مثل هذا الكتاب ...

إذن لقد انتحرا ... تخلصا من دنياهما القديمة التى شقيا بها وشقيت بهما حيناً من الدهر ...

لقد أنقذ الفتى روحين ، وإنه لمسئول عن مصيرهما ...

ونهضا ... وطفقا يسيران ، هو يخطو مرفوع الهامة تتقد عيناه عزما وحيوية ، وهى بجانبه معتمدة على ذراعه يشرق على محياها سنا الطمأنينة ...

إنهما يسيران ...

يسيران وقلباهما يخفقان بشعور واحد ، شعور نقى ناصع كضياء هذا الكوكب المتألق الذى يغمرهما بفيضه اللؤلؤى ...

يسيران نحو دنيا جديدة !

٦

شيخ الخفر

إنها قصة تراخى بها العهد ، وقعت أحداثها فى ضيعة ضئيلة الشأن ، تكاد تنتهى بها تخوم العمران ...

كانت الحياة فى هذه الضيعة تجرى على الأساليب العتيقة فى الفلاحة والادارة ، بيد أنها مع ذلك كانت قنوعاً بما تيسر لها من وسائل العيش ، فتوافر بذلك حظها من هناءة وأمان ...

عاشت الضيعة ترفرف عليها السكينة والطمأنينة ، يتآزر أهلوها على المعاش ، وتصل بينهم وشائج مودة و إيلاف ، فلا ضغائن مطوية ، ولا شقاق يفضى إلى فرقة وانقسام .

قام على رأس هذه الضيعة السعيدة ناظر أربى على السبعين من عمره ، فحل من قومه محل الأب من بنيه ، يضمر لهم الحنان والمرحمة ، ولكنه يسوسهم بما تقتضيه الحكمة والحزم ، فى عدل و إنصاف ...

وهو على الرغم من علو سنه ، جم النشاط ، متوقد الذهن ، يعيش حياة الفلاح ، ويقوم بعمله ، ولا يتميز فى مطعمه وملبسه ومسكنه عن سائر سكان الضيعة ... فأحبه قومه ، وأذعنوا له بالطوع ، وهابوا كلمته فى أمره ونهيه .

نهض الناظر بواجب منصبه ، معولا على نفسه ، غير مفتقر إلى جمع من الكتبة والأعوان يحفون من حوله ... فاذا رغب فى عون

دعا إليه ارتجالا بعض الرفاق ، فيبتدرونه ويعينونه فى غير كلفة ولا تعقيد ... ومن ثم كان فى غنية عن موظفين تناط بهم أعمال .

وما كان الناظر بغافل عما تستمتع به الضيعة من هناءة ، فكان يزهى بذلك بين الحين والحين ، ويردد كلمته الخالدة :

— كل شىء يجرى بالبركة !

آتت هذه البركة ثمراتها الطيبة فى شيوع الأمن ، واستتباب السكينة ، فلم يعكر صفو الضيعة أى حدث من الأحداث المروعة فى عهد ذلك الناظر المبارك ...

وحان يوم قضى فيه الرجل نحبه ، فتلقت الضيعة نعيه فى ذهلة ووجوم ، ولكنها استلهمت فى رزئها الكبير إيمانها العميق . وودعت بموت هذا الناظر عهدا مذكوراً بالخير ، وتطلعت إلى عهد جديد لا تدرى مصيرها فيه ، مستسلمة إلى أنه ليس لحال دوام !

وصبحاً هبط الضيعة شاب فى ميعة الصبا ، يرتدى الحلة الافرنجية ويحمل على رأسه القبعة المجنحة ... فأقبل مفتول الساعد ، مرفوع الهامة ، مزهو الخطا ، مدلا بما يتميز به عن هؤلاء الناس من كسب العلم والتحضر ، وفى يده سوط صغير ، يتلاعب به ذات اليمين وذات الشمال ...

وسرعان ما أعلن أنه الناظر الجديد !

فاحتشد إليه القوم ، رانية أبصارهم ، يتفحصونه فى دهشة وعجب ... ليس عهدهم بعيداً بناظر ضيعتهم الراحل ... ولقد استقر فى أذهانهم أن « الناظر » لا بد أن يكون على غراره : شيخا أشيب ، يعتم على لبدة ، ويضع على منكبيه العباءة ، ويتخذ عصاه من أغصان الشجر ... فما بال هذا الفتى الأمرد يدعى ما ليس له بأهل ؟

وفرقع الناظر الجديد بسوطه ، فأيقظ القوم ، وباغتهم بقوله :

— أين حضرة المعاون ؟

فاختلط الجمع ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ...
فاستأنف الناظر صيحته النكراء ، قائلا :
— أقول لكم أين حضرة المعاون ؟
فتعالى همس القوم فى حيرة وتعجب ... وبعد لأى ، برز من بين الصفوف شيخ يخب فى «زعبوطه» ، ورأسه يتطامن تحت عمامة ضخمة ، وتقدم بلحيته المبعثرة ، ووجهه المتغضن ، يقول :
—ليس لدينا معاون !
فاستنكر الشاب مابلغ سمعه ، وعاجل الشيخ بقوله :
— ما ذا تقول ؟ أضيعة بلا معاون ؟
فأجابه الشيخ ركين اللهجة :
— عشنا لا نعرف رجلا له هذا اللقب ...
فارتفعت جعجعة الشاب وهو يقهقه ، وفرقع ثانية بسوطه ، قائلا :
— على بأمين المخازن ...
فغض الشيخ من بصره ، وجعل يفرك يديه ، قائلا :
— وهذا أيضاً لا وجود له !
— أتزعمون أنكم لا تعرفون رجلا له هذا اللقب أيضا ؟...
— صدق أننا لا نعرف له من وجود ...
فاحتقن وجه الشاب ، وصاح فى صوت الثائر المحنق :
— ومن عنده مفاتيح المخازن ؟ أتدعون أنكم لا تعرفون للضيعة مخازن ولا مفاتيح ؟ !
فشخص الشيخ ببصره ، قائلا :
— هون عليك يا بنى ... فى الضيعة مخازن لها مفاتيح ، ولقد كانت فى حوزة الناظر المرحوم ، أتريد أن تتسلمها ؟ إنها أمانة عندى ...
— وأنت ... من تكون ؟

— أنا شيخ الجامع ...

فبعث الشاب من حلقه صيحة ساخرة ، وقال :

— ما شاء الله كان ! ... مفاتيح المخازن بيد شيخ الجامع ... هاتها يا رجل !

فانصرف الشيخ ليأتى بالمفاتيح ، وطفق الناظر يذرع الأرض جيئة وذهوبا ، وهو يتلفت حوله تلفت المتعض المشمئز ، وجعل يغمغم :

— فوضى ! ... فوضى ! ... يبدو لى أنه لا بد أن أنشئ الضيعة إنشاء جديداً !

ثم صاح بالجمع ، قائلا :

— أليس فى الضيعة موظف مسئول ، أستطيع أن أفهم منه ما أريد ؟ ألم يكن للضيعة كاتب ؟

فخرج من الصفوف شيخ نحيل يتحامل على نفسه ، وقال :

— كان المرحوم يدعونى أحيانا لأقيد له بعض حساب الضيعة ...

فجأر الناظر يقول فى تهكم :

— الحمد لله ... وجدنا أخيراً من نسأله !

وراح يلاحظ الرجل بالنظر الشزر ، ثم أشار إليه قائلا :

— تقدمنى إلى الادارة نتصفح الدفاتر ...

وهنالك فى حجرة بالغة السذاجة ، دخل الرجلان ، فتلفت الناظر يبحث عن مجلس له ، فلم يجد إلا دكة متخلعة ، ورفاً عليه بعض الأوراق والدفاتر تعلوها غبرة ، فاستنكف أن يجلس ، ولبث واقفا يقلب تلك الدفاتر والأوراق ، ويلقى عليها خواطف النظرات ، ثم يقذف بها يمنة ويسرة فى تأفف وازدراء ...

وبينا هو كذلك إذ هرول إليه شيخ الجامع يحمل حزمة من مفاتيح ضخمة ، فقدمها إليه ، وما إن أبصرها الناظر الشاب حتى صاح مقهقها :

— مفاتيح من خشب ؟... فى أى زمن تعيشون ؟

وازور ببصره عنها يذرع الحجرة ، مهتاج الخطوات ، ثم وقف أمام الرجلين يحدق فيهما برهة ، وقال :

— سترى الضيعة عجبا ... لأنقلنها من عهد جهالة وظلام ، إلى عهد حضارة ونور !

وعلا بيده على جبينه يعتصره ، ثم صاح قائلا :

— على بشيخ الخفر ...

فطأطأ الشيخان رأسيهما ، وأمعنا فى فرك أيديهما ...

ولما طال بهما الصمت ، صاح الناظر وقد بلغت به الحيرة والعجب كل مبلغ :

— أتجسران على أن تدعيا أن ليس فى الضيعة خفراء ؟... حراس ؟

فارتفعت عمامة شيخ الجامع ، وتجلى محياه المغضن تكسوه طمأنينة الايمان ، ثم همس بقوله :

— الحارس هو الله !

ففرقع الناظر بسوطه فرقعة ريع لها الشيخان ، وبصق بصقة هوجاء ، وانفتل من الحجرة كالسهم المارق ...

اعتكف الناظر الجديد أياماً فى مثواه لا يريمه ، وهو منكب يدبج تقريراً مسهبا فى شأن الضيعة وما تفتقر إليه من خطة الاصلاح ، انتشالا لها مما هى متردية فيه من فوضى وخراب ...

وقد ترادفت فى تقريره كلمات لم يرد بداً من الالحاح فى بيانها والاشادة بأثرها ، من مثل : « تحديد المسئولية » و « تعيين جهات الاختصاص » و « توزيع السلطات » و « تعزيز السلطة التنفيذية » ...

وخلص من ذلك إلى أن أول ما يجب القيام به هو إنشاء قوة خفر نظامية ، تكون عونا للسلطة التنفيذية على الاضطلاع بمهامها الجسام ، والضرب على أيدى من تحدثهم أنفسهم بالوقوف فى طريق الاصلاح والتعمير ...

وبعث الناظر الشاب بتقريره إلى رب الضيعة فى العاصمة ، ونهض يستنشق نسيم الراحة والاستجمام ، كأنما يعد نفسه لذلك العمل الجبار الذى رسم خطته فى تقريره العظيم ...

قضى الناظر أسبوعه الأول منهمكا يفكر ويدبر ، لتحقيق أول خطوة فى خطة الاصلاح ، تلك هى إنشاء قوة الخفر ...

وكان أول ما عنى به اختيار زى للخفراء الجدد ، يوفر لهم المهابة المنشودة ، ويميزهم عن سائر خلق الله ...

وما إن اطمأن إلى الزى ، حتى شرع يعرض فتيان الضيعة الأشداء ، ويصطفى من ينجحون فى اختياراته السيكلوجية لمعرفة حدة الذكاء ، وقوة الشخصية ، وما أوتوا من مواهب فى الضبط والربط وسعة الحيلة .

وبعد أن بلغ من ذلك مأربه ، وتخير جمعاً من الفتيان توافرت لهم كل تلك الشرائط ، راح يفكر أيهم يؤمره عليهم شيخاً ؟ وجعل معوله فى الاختيار على قوة بصيرته التى يعتز بها وينزهها عن الزلل ، فوقع اختياره على فتى لم يكن أقدر الجمع ولا أسنهم ، وإنما هى قوة بصيرة الناظر الشاب رأت فيه ما لم ير سائر الناس ...

ووقف الناظر أمام صف الخفراء ، فجذب إليه ذلك الفتى المحظوظ ، وصاح به :

— لقد اخترتك شيخاً للخفر ، فأدرك مهمتك حق إدراكها ... إن الجندية أساسها الطاعة والنظام دون جدل أو نقاش ... وعلى كل أن يلزم حده ، وأن يعرف واجبه !

وفى اليوم التالى ، تجلى « شيخ الخفر » فى « الدوار » يزهو بلبدته التى حملت شارة الرياسة ، وفى يده هراوة صلبة فارعة كأنها رمح القائد المظفر ، وهو يتخطر فى معطفه السابغ الأدكن ، وئيد الخطا ، وخلفه شرذمة الخفراء ، يعلو وجوههم البشر ، وهم معجبون بما يكتسون من زى جديد ...

وما إن توسط الخفراء ساحة « الدوار » حتى أهل عليهم الناظر الشاب ، وفى يده سوطه يتلاعب به ، وبدأ يعرض صفهم ، ثم وقف متهلل الوجه ، تتألق عيناه ، وصاح :

— انتباهاً !

وابتدأ معهم حصة « التدريب » فتعالت دبدبة الأقدام ، وتراءت السواعد تنثنى وتنبسط ، وتحركت الأجسام تعلو وتهبط ، وتعقد الغبار فى الجو كأنما أثارته حرب ضروس .

وفى أثناء تلك المعمعة كان الناظر الشاب يجأر بصوته فى الفضاء ، فتتردد أصداؤه فى الأرجاء ، إذ يقول:

— إلى اليمين در .

— إلى الأمام سر .

— خطوة إلى الخلف .

— أربعات تشكيل .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وكانت سطوح « الدوار » وأسواره قد عششت على حافاتها زمر من لصبية تتطلع ، وقد بهرها ما ترى من منظر عجيب !

لبث الناظر يمارس التدريب ساعة من نهار ، ثم استخلف مكانه شيخ الخفر يواصل العمل على النحو المرسوم ... وانصرم النهار وشيخ الخفر مجد فى تدريب فرقته ، لا تهدأ له حركة ، ولا يخفت له صوت ...

وراح إلى داره فى غيوب الشمس متشقق الحلق من متابعة الضجيج والصياح ، منهوك القوى تكاد تنفصم ركبتاه من طول الانثناء والدوران ... ولكنه على الرغم من ذلك أقبل على الدار مشرئبا ملتمع العين ، فاستقبلته زوجه ، والتف حوله بنوه يتحسسون معطفه ، ويتواثبون عليه تطلعا إلى لبدته ذات الشارة الحمراء ...

فطفق الرجل يتحدث إلى زوجه فى مهام منصبه ، وكيف أن الجندية

أساسها الطاعة والنظام ... وما لبث أن بدا فى إشاراته وحركاته ونبرات صوته محاكيا ناظر الضيعة الجديد . وجعل يدس فى أحاديثه تلك الجمل الرنانة والألفاظ البراقة التى صافحت سمعه أول مرة فى هذا اليوم ، من مثل « أربعات تشكيل ، خطوة إلى الخلف ، تعظيم سلام » ... فكانت أسرته تصغى إليه فى نشوة ، والعيون إليه رانية !

ولما حضرت صينية العشاء ، وتحلق حولها الجمع ، مفترشين الحصير ، أبى رب الدار إلا أن يحضروا له مقعداً يرتفع به عن أديم الأرض ! ...

استنفد تدريب الخفر جهد الناظر كله ، فكلما فرغ من جانب عرض له جانب جديد ...

وكان لا يسير فى الضيعة أو يجوس خلال الحقول إلا مصطحبا شرذمة من أولئك الخفراء المدربين ، تتقدمه أو تقفو خطاه .

فأما شيخ الخفر فظل يتلقى تعاليم الناظر فى شأن مهمته ، وينهمك فى تنفيذها بين مرءوسيه فى همة ومضاء . فاذا أتم عمله ، واتخذ سبيله إلى داره ، أحس الأعين ترمقه بنظرات خشية وتهيب ، ويرى الصبية لا يكادون يلمحون شبحه حتى يلوذوا بالفرار مخلين له وجه الطريق !

ويوما وهو يدرب فرقته لم يرض عن أحد الخفراء ، ورماه بالتقصير ، وجاوز فى تعنيفه الحد ، وكان الخفير أسن منه وأصلب عودا ، فلم يعتم ذلك الخفير أن أغلظ له فى القول ، وما هى إلا أن هجم عليه شيخ الخفر وهوى على صدغه بلطمة شديدة ، وسرعان ما التحم الخصمان ، واستبد بهما العراك ...

وانتهى إلى الناظر الخبر ، فقدم على عجل ، وفرق بين المتضاربين ، ثم لم يلبث أن أصدر أمره بفصل الخفير فصلا مشمولا بالنفاذ ، لأنه خالف أول مادة فى قانون الجندية ، وهى الطاعة والنظام دون جدل أو نقاش ...

وتقدم إلى الصف فانتزع الخفير منه ، وجرده من شارة الخفارة ومن

زيها الرسمى ، كما يجرد القائد جنديه المتمرد من شاراته وينتزع منه مامعه من السلاح !

ومضى الخفير الطريد مهيض الجناح يتضرم قلبه حقدا وضغينة ... وفى جوف الليل أمام النار المتقدة التف بعض الخفراء يصطلون ، ويخوضون فى حادثة النهار ، فقال أحدهم :

— ليس من حق شيخ الخفر أن يصفع واحداً منا !

فأجابه رفيق له :

— ولكنهم يزعمون أن الطاعة أساس الجندية الصحيحة ...

فصاح ثالث :

— مهما يكن من أمر ، فما يجوز لأحد أن يهين خلقة الله !

فقال الأول :

— الحق أن شيخ الخفر جاوز الحد ، وأنه صال واستطال ، مع أنه ليس أهلا لمنصبه ، وأنه ليس فينا من يقل عنه اقتداراً وقوة .

فقال الثالث :

— حقا خدع الناظر فى شأنه ، وسينتبه إلى خطئه فى اختياره .

فقال رابع آخر ، وكان برأيه ضنيناً :

— لا تنسوا أن مرتب شيخ الخفر ضعف مرتب الخفير ، على حين أنه ليس له من عمل إلا الجعجعة والتأمر .

ولمح الجمع شبحا فى الطريق ، فسكتوا يتبينون شخصه ، فاذا هو الخفير الطريد ، فدعوه إلى الجلوس ، فاستجاب ...

وكثر بينهم همس ، تخلله فحيح الكيد والدس !

تقضت أيام لم يجرؤ فيها أحد على أن يطالع الناظر بشكاة ، أو يرفع إليه ظلامة ، ولكن الضيعة عاشت هذه الأيام تحت ستار من الأسرار ...

وتواصل العمل فى تدريب الخفراء ، بهمة ونشاط ، وأحس شيخ الخفر سطوة سلطانه ، فازداد من صلف وعتو ، وتتابعت منه صنوف الاهانات من ركل وصفع وطرد ، يسخو بها على مرءوسيه فى تجن وتقول

وادعاء ، واجداً من ناظر الضيعة ظهيرا يواليه بالرضا والتأييد ...

وسرت بين سكان الضيعة هيبة شيخ الخفر وجاهه ، فتقرب إليه الناس جماعات ، وخصوه بأنواع الزلفى ، وأصبح بيته مقصدا لطلاب الشفاعات فى شئون الضيعة وما يتصل بادارتها ، ومرفأ لكثير من الهدايا والاتحافات من خيرات الريف !

ومرة عنف الناظر بشيخ الخفر ، فى بعض الأمور ، فلم يرقه ذلك ، وبدت عليه بوادر التنمر ، ونسى فى غشية الزهو والسلطة أنه بين يدى رئيسه ، وتضاءلت فى مخيلته تلك الحكمة القائلة بأن الطاعة أساس الجندية ...

وانتهى الأمر بالناظر وشيخ الخفر إلى جفوة تطاير غبارها ، وتسامع بها الناس .

وما أسرع أن تهاوت الظلامات تصابح الناظر وتماسيه ، مهيبة به أن يضع حداً لذلك الجبار العنيد الذى عاث فى الضيعة فساداً ...

وفكر الناظر فى أمر شيخ الخفر طويلا ، وأسلمه التفكير إلى رأى حاسم ، هو إحالة ذلك الرجل إلى مجلس تأديب .

وانعقد المجلس ، فتولى الناظر رياسته ، متنفخاً فى جلسته ، وعن يمينه شيخ الجامع يرزح تحت ثقل عمامته ، وعن يساره ذلك الشيخ الذى يقوم بأعمال الكتابة فى الضيعة ، تكاد تخطئه العيون لضموره وانكماشه ...

وبدت « السين » و « الجيم » تتقاذف بهما الألسن فى تلك الحجرة المعتمة المتهدمة التى يكاد سقفها يخر ، وقد وقف المتهم يحاصره جمع من الشهود ...

ونصل ضوء النهار ، وما برحت المحكمة جادة تحقق وتناقش ، وقد اختنق الجو بالأنفاس ، وتحلب العرق من الجباه ، وبدا الناظر محتقن الوجه ، مضطرم العينين ، ففك أزرار قميصه ، وشمر كميه ، وهو منخرط فى عمله يهيمن على نظام الجلسة ، ويلقى أشتاتاً من الأوامر والنواهى فى حمية وحماس .

وأخيراً رأى رئيس الجلسة أن يختلى بنفسه ، ليصدر حكمه فى قضية اليوم . فأمر باخلاء المكان .

وبعد هنيهة أذن للجمع فى الحضور ، لاعلان الحكم ، فاغتصت الحجرة بوافديها ، وتجمع الناس حولها يسدون منافذها ويرهفون الأسماع ...

وما هى إلا أن اعتلى الناظر مقعده ، ووقف يقرأ ورقة فى يده ، وبعد أن أشبع نهمه من تكرار : « من حيث إن ... » أعلن حكمه القاضى بفصل شيخ الخفر و إلزامه دفع غرامة جسيمة ...

فدوت فى الحجرة ضجة عارمة ، وتعالت أصوات تهتف بحياة العدالة، وأخرى تهتف بسقوط الطاغية البغيض !

واخترق الناظر زحمة الناس وهو يضرب الأرض بخطا ثقال ، ويتلاعب بسوطه فى اهتياج ، وقصد إلى منزله مزهو النفس ، ولكنه ما كاد يبلغ المقعد حتى ارتمى عليه منسرق القوى !...

وسهرت الضيعة ليلتها تتحدث فى شأن من يخلف شيخ الخفر المعزول ، فتحلقت الجماعات على المصاطب ، واختلطت الأصوات فى مجادلة وحوار ، تحاول كل فئة أن ترشح من تهوى ، وتعمل على إحباط غيره من المرشحين لهذا المنصب الخطير الذى تعرفت الضيعة مكانته وأثره فى التسلط والاغتنام ...

وتسللت الأشباح زرافات وفرادى إلى بيت الناظر ، يطويهم الباب فى مساترة وحذر ...

وظلت حجرة الناظر تبعث شعاع مصباحها حتى جوف الليل ، وطيف الناظر يتراءى وراء النافذة فى جيئة وذهوب ...

وبكر الناس فى رونق الصبح يتجمعون تجاه البيت، مرتقبين مهبط الناظر ليروا ماذا بيت من رأى فى اختيار شيخ الخفر الجديد . فما إن لمحوه مقبلا حتى تكأكأت عليه الجموع تستخبره فى تعريض وتلميح . فمضى عنهم مشمخر الأنف ، محتفظا بالسر العظيم !

وقصد الحجرة التى كانت أمس محكمة الفصل فى قضية شيخ الخفر

وهنالك أعلن على الملا أنه قد تخير الخفير الطريد شيخاً للخفر ، فكأنما رمى بذلك إلى أن ينصف مظلوماً هضم حقه الشيخ المفصول ، حتى يطمئن الناس إلى أن العدل أساس الادارة فى عهد ناظر الضيعة الجديد ومخرجها من حال إلى حال .

وما كاد الناظر يعلن ذلك حتى تبدت علائم الدهشة على الوجوه ، فما كان فى حسبان أحد أن يقع الاختيار على ذلك الخفير الذى طرد من قبل ، ولقد رشحت كل جماعة واحدا ، فلم يكن ذلك الرجل أحد المرشحين جميعا ...

وظل الهرج والمرج ينتهب الجموع ، حتى فرقع الناظر بسوطه ، فتراجع الناس ، وثاب إليهم الهدوء .

واكتسى الشيخ الجديد معطفه السابغ ، وسوى على رأسه لبدته ذات الشارة الحمراء ، وأخذ بيده الهراوة الفارعة ... وسرعان ماشهدت ساحة « الدوار » ثانية جمع الخفراء يزاولون التدريب ، وتجاوبت الأرجاء بالكلمات الخالدة :

— إلى اليمين در .

— إلى الأمام سر .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وآب شيخ الخفر الجديد إلى بيته ، يومئ بالتحية يمنة ويسرة لمن وقفوا له . وما كاد يلج باب الدار حتى استقبلته حشود من القصاد يحملون له الهدايا والطرف ، ويعاجلونه بعبارات التهنئة والدعاء ...

وتواردت الأيام تروع شيخ الخفر المفصول بألوان الاضطهادات والاهانات يتقصده بها شيخ الخفر الجديد ، يؤازره أصحاب الثارات والأحقاد ممن كان يطغى عليهم الشيخ الأول إبان حوله وطوله ...

وتبدلت حال شيخ الخفر الجديد ، فتراءت فى بيته أنعم طارئة ،

وعرف طريقه طلاب الحاجات والشفاعات ، والتف حوله الشيعة والأنصار ...

وأصبح منصب شياخة الخفر ذائع الصيت قوى النفوذ يجتذب بلألائه النواظر ، فهفت إليه القلوب ، وتعلقت به الهمم ، وتكاثرت حوله الأطماع ...

وريعت الضيعة مرات بأحداث السرقات ، وتقليع الزروع ، وتغريق الحقول ، وما إلى ذلك من ضروب الكيد والايذاء ...

وتوالت على بيت الناظر عرائض الشكاة والاتهام ، تمس شيخ الخفر وترميه بكل نقيصة شنعاء . فكان الناظر يقضى ساعاته الطوال يتصفح تلك العرائض ، ويذيلها بملاحظاته وتقريراته ، مجتهداً فى الموازنة والتأويل والاستخراج ...

واستيقظت الفتنة فى قلب الضيعة ، وتبادل الناس الخوف والحذر ، وتسلل التباغض إلى جماعة الخفراء ، فانقسموا على أنفسهم شر انقسام ، وراح يكيد بعضهم لبعض ، فتفطن شيخ الخفر إلى ذلك كله ، وخشى سوء المغبة ، وتمثل مصير سلفه ، فاتخذ للأمر أهبته ، وجعل يتحوط ويتحفظ ، وتذرع بشتى الوسائل ، من بث للعيون ، و إغراء بالغنائم ، وحبك للمكائد ، وتأليب لنفر على نفر ، حتى يحتفظ بمنصبه ، ويقبض على نواصى الأمور ...

وآنس الناظر وميض النار خلل الرماد ، فضاعف عدد الخفراء ، وظهر فى الملا يحمل إلى جنبه غدارة ضخمة ، يكف بها خائنة العيون !

وكان فى كل فرصة تلوح له يؤكد أنه لن يألو جهداً فى إقرار الهدوء والنظام ، فلا نجاح لعمل إلا فى ظلال الأمن والسلام !

وليلة هب الناظر من رقاده قبيل السحر مذعوراً ، إذ أنهى إليه بعض الخفراء أن سطوا وقع على بيت شيخ الخفر وأن البحث جار عن المعتدين حول منازل شيخ الخفر المفصول ونصرائه !

وما إن أتم الخفير قوله ، حتى سمعت ضجة عنيفة ، وتضارب بالعصى

الغلاظ ، وقد انطلقت أصوات النساء فى ولولة وتصايح وانتحاب ...

فأسرع الناظر يرتدى ملابسه ، وهرول إلى مساكن الضيعة ، فألفى الثورة فى عنفوانها ، والمعركة تدور رحاها حامية الوطيس ، فاقتحم الزحام فى جرأة و إقدام ، وراح يزأر بصوته ينهى ويأمر ، فلم يعبأ به أحد ، وذاب صوته فى حرارة العراك والمطاحنة ، وأراد أن يستنجد بغدارته ، فما كاد يمسكها فى يده ، حتى وجدها قد أفلتت منه ، وذهبت أدراج الزحمة والاختلاط !

وأحس الجماهير تعتصره وتضغطه ، فحاول ثانية أن يصرخ ، فتعثر صوته فى حلقه ، فأراد أن يفزع إلى أعوانه من الخفراء والحراس ، فلم يجد أحداً فارغا له ، كل منهم بنصيبه فى المشاجرة مشغول . وضاقت به وجوه الحيلة ، فتراجع نجاء بنفسه مما لا تحمد عقباه ، فاذا به عن كثب من فئة تتضارب بالهراوات فى عنف وهوج . وما هى إلا أن اندمج فى هذه الفئة ، وقد تعاورته الضربات ، فخر مثخنا بالجراح ...

وفى مرتفع النهار ، شمل الضيعة خمود وتخاذل وانهيار ، ثمة أناس داخل الأكواخ وخارجها طحنتهم المعركة وأدمت أوصالهم ، فهم يلمون شعثهم ، ويعالجون جراحاتهم ... وثمة أمتعة مبعثرة أمام الدور ، وأنقاض ماتهدم من جدران تجوس خلالها الكلاب متشممة فى خوف وحذر ...

وفى صبيحة غد شوهد شيخ الجامع يجوب الضيعة ، مستعيذاً بالله ، ملتمسا منه اللطف فى قضائه ... وكان يمر بالدور لماما ، يعود طريحا أو يؤاسى جريحا ، ويهدئ ثائراً أو يشاور ذا رأى من الأشياخ ...

وأدى به المطاف إلى إدارة الضيعة ، فما إن رآه الشيخ الذى يتولى كتابة الحساب ، حتى ألقى إليه مفاتيح المخازن ، فاذا هى هى تلك الحزمة الضخمة من المفاتيح الخشبية ، وقال وهو يسلمها له :

— أبقها معك يا مولانا الشيخ ، ريثما يتم تعيين الناظر الجديد ...

٧

عند ما نحيا مع الأطياف

كنا فى بيت صديقنا عجلان بك نستمتع بسهرة عذبة السمر ، تعودنا أن نستمتع بها بين حين وحين . وكانت الليلة قارسة البرد ، تتصارع فيها الرياح فتهز النوافذ والأبواب ، ولكننا كنا بمنجاة من هول العاصفة بما هيأه لنا مضيفنا السمح من مدفأة كهربية تشع الحرارة وتشيع الدفء فى أرجاء القاعة ، و بما أعده لنا من مائدة شاى حافلة بأفانين من الكعك والفطائر والحلويات . وكانت مصابيح القاعة هادئة الضوء هدوءاً يفسح للفكر مجال الخيال . وكان مضيفنا فى الستين من عمره يغيب جسمه الضئيل فى عباءة فضفاضة سوداء ، وعلى رأسه قلنسوة من الصوف على لون العباءة ، تنم غضون وجهه عن شيخوخة وادعة ناعمة . وهو متربع فى متكئه يحتسى الشاى ، وينظر إلى المدفأة بين وقت ووقت كأنه يستجدى حرارتها لجسمه الضامر الهزيل . وقد استطرد بنا الحديث إلى موضوع مخاطبة الأرواح ، فأصغى مضيفنا إلى الكلام دون مشاركة ، حتى رغب إليه أحدنا فى أن يدلى برأيه : أمصدق هو أم منكر ؟ فأشعل عجلان بك لفافة من لفائفه السود ، وشرع ينفث دخانها طويلا ، وتناول جرعة من قدح الشاى ، ثم أخذ يتكلم بصوته الخافت الأبح . واسترعى انتباهنا همهمة الرياح وزمجرتها المكبوتة ، فخيل إلينا أن أطيافاً هائمة تحوم حول البيت ،

كأنما تحاول التسرب إلى مجلسنا من القاعة . وكانت المدفأة ترسل إلينا نظراتها المحمومة من عيونها الشاخصة ، كأنها كائن حى يشركنا فى المجلس بسمعه وبصره . وقال عجلان بك :

— إن أردتم أن أصارحكم برأيى قلت لكم إن لأرواح الموتى عالمها العلوى ومجالها القدسى ، تسبح فيه ويناجى بعضها بعضاً ، بعيدة عن عالمنا الأرضى وكوننا الدنيوى . فلا صلة فيما أعتقد بين الأحياء وأرواح الموتى ، فلكل من هؤلاء وهؤلاء دنيا مستقلة لا تربطها بالأخرى أية رابطة . فأما إن أردتم مخاطبة الأرواح بين الأحياء على بعد الشقة بلا مشاهدة ولا تلاق ، فتلك حقيقة لا يخامرنى فيها أى ريب ، وسأروى لكم حادثة واقعية لا أثر فيها لتزويق الخيال ، وقعت لى وأنا على أبواب الثلاثين ، وقد بدأت حياتى العملية فى المحاماة ، ولم يكن ذكرى قد نبه فيها بعد ، ووقتى كله بين الاطلاع والدرس ، لا أجد فسحة للهو الشباب ولغوه ، وأنا شديد التحرز من غواية المرأة وفتنتها ...

دخلت أصيل يوم متجر « باسكال » وهو يومئذ فى طليعة متاجر الأمتعة وأدوات الزينة . وبعد أن ابتعت ما أردت منه ، واتجهت نحو الباب خارجا ، وقع بصرى على ورقة مطوية ملقاة فى موطئ الأقدام ، مما تعودنا أن نراه من نفاية الأوراق فى مثل هذه المتاجر . ولكن حافزا لا أعرف له مأتى جعلنى أنحنى على تلك الورقة المطوية ألتقطها من الأرض ، فاذا هى ظرف يضم صورة صغيرة لصبية يلوح أنها فى مطلع العاشرة . ومضيت فى الطريق أتطلع إلى تلك الصورة فترة ، ولم يكن فيها مما يستوقف النظر إلا عينان نفاذتان تزخران بحيوية قوية ، تظللهما أهداب وطفاء تزيد فى نفاذ النظرة وعمقها . وعلى فمها تتخايل ابتسامة مشرقة ، وقد تموجت على كتفيها خصلات شعرها الفاحم المسترسل . وهممت أن أقذف بالصورة فى عرض الطريق . ولكن وجدت يدى تعيدها إلى مكانها من الظرف ، وألفيتنى أضع الظرف فى محفظتى بعناية . وانصرفت بعد ذلك إلى مكتب المحاماة ، فقضيت فيه طويلا من

الوقت مشغولا بلقاء الزوار و إنجاز الشئون ، وقد نسيت أمر الصورة وما إليها . ثم أبت إلى دارى بعد هدوء من الليل ، فعكفت فى حجرة مكتبى على درس قضية كنت معنيا بها طول الأسبوع . وموعد نظرها الغد ، وهى من القضايا المعضلة التى بذلت فيها جهداً موفوراً ولم أصل فيها إلى حل تطمئن به النفس . وأخرجت إضمامة القضية ، وجعلت أتصفح أسانيدها وأتفحص دقائقها ، وكنت أصادف عقبات أحار فى تذليلها ، فانتابنى تبرم وضيق بنفسى ، فرميت بالقلم بعيداً ، وكدت أمزق الأوراق شر ممزق ، ولكنى أحسست يدى تخرج محفظتى ، وتبسط منها صورة الفتاة الصغيرة أمامى ، فطالعتنى على الفور هذه النظرات العميقة الفوارة بالحياة اليقظة ، وتلك الابتسامة الجياشة بمسرات الحياة وزينتها ، فأطلت التحديق فيها ، وانسرحت أفكر فى شأن هذه الصبية : ترى من تكون ؟ ترى كيف هى ؟ ترى على أى نحو تحيا ؟ ولكن لم هذا التقصى كله ؟ حسبى أن أتمثلها صبية دائبة الحركة تتواثب هنا وهناك ، وتتضاحك فى دعابة وعبث ، فتثير حولها جوا صاخباً من الايناس والبهجة . ولا أدرى ماذا قضيت من الزمن فى التطلع إلى هاته الصورة والتفكير فيها ، و إنما أعلم أن معضلات القضية التى كنت أدرسها قد تيسر حلها على أحسن الوجوه ، وأنى حينما ذهبت فى الغد إلى المحكمة وأدليت بدفاعى أصبت نجاحاً باهراً ، كان الدعامة التى قامت عليها شهرتى فى المحاماة وذاع صيتى من بعد .

ومنذ ذلك اليوم لم تفارق الصورة جيبى ، فكنت أحملها كتميمة أو طلسم أحس أن له قوة ترد عنى الصعاب ، وتفسح لى آفاقاً من الهناءة والتوفيق ... ظنوا ما تشاءون أيها الرفاق ، قولوا : وهم باطل ، قولوا : شذوذ عجيب ، ولكننى أؤكد لكم أنه ما من مرة ضاقت بى السبل وفزعت إلى هذه الصورة إلا وجدت فيها مفتاح الخلاص . حسبى أن تقع عينى على هاتين العينين النفاذتين ، هذا «الدينامو» الحى الزاخر بروح الحركة والحياة . حسبى أن تشرق على تلك الابتسامة

العذبة ، تلك الشمس الساطعة بنورها المتألق ، فاذا بى أجد الطمأنينة تشيع فى حنايا نفسى ، وتكسبنى أمناً ودعة .

واستبدت بى رغبة ملحة فى اكتناه شخصية صاحبة الصورة ، فكلما مررت بأماكن التصوير تطلعت إلى ما يعرض فيها من صور ، وجعلت أتبينها واحدة واحدة ، أبحث بينها عن ضالتى المنشودة ... ولكننى لم أصل فى بحثى إلى شىء . وظلت صاحبة الصورة سرا خفيا عنى ...

وكثيراً ما قضيت ساعات فراغى فى صحبة الصورة ، أتفرس فيها ، وأنسج حول صاحبتها قصصا من أحداث حياتها ، فتارة أتخيلها فى دارها مع أسرتها ، وطوراً أتمثلها فى فناء المدرسة مع صويحباتها ، وهى دائما تدبر الحيل والمكائد فى لطف ومزاح ، وترسل الضحكات صاخبة ساخرة . وإن لهذه الضحكات لرنيناً يشبه رنين الجرس الفضى وجلجلته ، هذا الرنين الذى ما زالت أصداؤه تتجاوب فى مسمعى حتى الساعة . أما صوتها فلم يكن حاداً كأصوات الأطفال ، وإنما كان صوتاً لين المكاسر جذاب الغنة ، إذا تحدثت به تبينت فيه لثغة حبيبة إلى السمع .

وكان شعورى نحو هذا الطيف الخفى ، طيف صديقتى الصغيرة ، شعورا مبهما لا أتبين له معالم واضحة . ولكننى كنت أحس فى دخيلة نفسى عاطفة جياشة فيها حنو وتعطف ، عاطفة أب شفيق يهفو إلى أن يحتوى بنيته بين ذراعيه ، ويوسد رأسها صدره ، ويتملى ضوء عينيها اللألاء ، ويربت شعرها السبط الأملس ، ثم يدنى شفتيه من جبينها الناصع ، فيودعه قبلة طاهرة .

وكانت هذه الخلوات أشبه شىء بالأحلام الناعمة ، فحينما أثوب إلى يقظتى ، وأراجع نفسى فيما مر بى ، ينتابنى شىء من الفزع ، ماذا ؟ أأقضى وقتى فى صحبة طيف من عالم الأوهام ، أم هى روح حقة لهذه الصغيرة تزورنى بين آن وآن ؟ لا أنكر أن حديثاً كان يدور بينى وبين ذلك الطيف ، ولطالما تراشقنا بالنكات طلية طريفة ، وتبادلنا الضحكات رنانة ملأى بالغبطة والابتهاج .

وساورتنى هواجس شتى ، وبدأت أتهم عقلى ، أمقبل أنا على مرض نفسى هذه بوادره ؟ وقصدت إلى أحد أصدقائى الأطبة ، وشكوت إليه حالى ، فقال على الفور :

— أين الصورة ؟

— فى محفظتى ...

— أرنيها ...

فحدقت فيه هنيهة ، ثم قلت :

— لم تطلب رؤيتها ؟

فأجابنى مصراً :

— أرنيها ...

فدسست يدى فى جيبى ، وتباطأت قليلا ، ثم أخرجت المحفظة وتظاهرت بأنى أبحث عن الصورة ثم رفعت إليه عينى ، وقلت :

— إنها ليست معى ...

فرمقنى بنظرة عميقة ، وقال :

— طلبت منك أن ترينى إياها .

— أؤكد لك أنها ليست معى ...

فدنا منى وربت كتفى ، وقال :

— إذا ناولتنى المحفظة أخرجت لك الصورة منها !...

— إذن أنت ترمينى بالكذب !

— استمع إلى يا صديقى وانتبه لما أقول ، إذا أردت أن تنجو بنفسك من هذه الحالة الشاذة التى تلابسك ، فأخرج الصورة من فورك ، ومزقها إرباً إرباً ...

— سأمزقها حين أرجع إلى دارى ...

— بل مزقها الساعة أمامى ...

— صدقنى فيما أخبرتك به ... ليست الصورة معى ...

فأحد صديقى الطبيب نظره فى عينى ، فوجدتنى أزيغ عنه بصرى

فى اضطراب وحيرة ، فانصرف عنى ، وجعل يغدو ويروح فى الحجرة بعض الوقت . ثم عاد إلى ووقف قبالتى ، يقول :

— اعلم أنك واقع فى أسر هواجس هى نوع من مرض نفسانى ليس بالهين . لقد تركزت « فكرة واحدة » فى رأسك ، ورسخت جذورها متغلغلة فى طوايا نفسك . وقد ساعد على تركز هذه الفكرة وتغلغلها أنك التزمت فى حياتك نظاما شديدا فى الدرس والاعتزال ، وأنك أردت نفسك على طهرية قاسية ...

— بماذا تنصح لى ؟

— أرى لك أن تتزوج ...

فنهضت من مقعدى ، وأنا أتضاحك قائلا :

— أى شيطان أوحى إليك بهذا النصح العظيم ؟ ما أسعدنى بالحياة التى أحياها !

— شأنك وما تريد ... قلت لك ما عندى !

فغادرت مقعدى ، وقلت : يلوح لى أنك لم تهتد إلى موطن علتى !

— لقد صارحتك بكل شىء ...

وسرنا معاً متجهين نحو الباب ، ولما مددت يدى أصافحه مودعا استبقى يدى فى يده ، وقال فى لهجة لينة :

— أما زلت مصراً على أن تخفى الصورة عنى ؟

فضقت ذرعاً بكلمته ، وأجبته فى لهجة لم تخل من حدة :

— إنى لمصر ...

— أأنت إلى هذا الحد غيور عليها ؟

فسرت فى أوصالى اختلاجة شديدة ، وهممت بأن أدفعه بيدى دفعة قوية ، ولكننى تمالكت ، وقلت له وأنا أتضاحك متصنعاً :

— أأغار على طفلة ؟ إنها ما زالت فى حداثة السن ... أنت بلا ريب تهذى !

— أأنا الذى يهذى ؟

— إنك تحسبنى واقعاً فى أسر مرض نفسانى ليس بالحميد . فهل تعلم أن كلامك هذا يدل على أنك أنت الواقع فى أسر ذلك المرض ؟ لقد أخطأت إذ قصدتك ...

ورأيتنى أتمادى أنا والطبيب فى مشادة جاوزت الحد ، وحينما قفلت إلى منزلى كنت شديد الاضطراب ، فخلوت بنفسى فى حجرتى ، وأوصدت الباب على ، ثم أخرجت الصورة من المحفظة ، ووضعتها على المكتب أمامى ، وما إن طالعتنى عيناها بنظراتهما النفاذة العميقة ، وابتسامتها المشرقة البهيجة ، حتى هدأت ثائرتى ، وثاب إلى نفسى الرضا والاطمئنان.

فضحكت وأنا أردد :

— أراد صديقى الطبيب أن يتعالم على ، و يزهو بخبرته أمامى ، فكشف لى عن جهل فاضح ...

واشتد صونى للصورة وحياطتى لها ، فكنت أثناء مكوثى بالمنزل أضعها فى خزانة نقودى ، فاذا تركت المنزل أودعتها محفظتى ، وبين الفينة والفينة أتفقدها فى مكانها لأطمئن إلى أنها لم تمس بسوء ...

وترادفت الأيام ، وحياتى مع الصورة ، أو بالأحرى مع طيفها ، تتأصل وتتوثق ! ...

وفى أصيل يوم ، وأنا فى منزلى أتناول قدحا من القهوة ، شعرت بانقباض مفاجىء ، واهتز القدح فى يمينى المرتجفة حتى كاد يسقط ، وتبينت أن الرعشة تنتظمنى ، فعجبت لما أصابنى ، وذهب بى الظن إلى أنها حالة عابرة سرعان ما تزول ، ولكننى أحسست الانقباض يزداد بى ، ويتحول هما ثقيل الوطأة ، وحزناً عميق الغور . ونهضت أذرع الحجرة حيران كاسف البال . وأخذت بعض الصحف ألتمس التسلى بقراءتها ، بيد أن نفسى صدفت عن المطالعة ، وخابت كل محاولاتى فى التسرية عنى ...

وسنح لخاطرى أن أخرج الصورة ... إنها مفزعى الأمين إذا حزبنى أمر ، وسلوتى المحببة إذا ضاق بى العيش . فخطوت إلى مكانها ألتمسها

فيه ، فراعنى أنى لم أجد لها من أثر ! ... وانهمكت أفتش عن الصورة فى كل مكان يلوح لى أنها فيه ، فقضيت وقتا طويلا ، وعانيت جهداً شديداً . ولم أقنع بهذا ، بل تركت البيت مهرولا إلى مكتب المحاماة ، فلم أدع به مكانا إلا امتدت إليه يدى بحثا وتفتيشا ... ووقفت مهتاج النفس يائسا ... يا عجبا ! ... أين توارت الصورة ؟ كيف غابت عنى !

وأخذت طريقى إلى عيادة صديقى الطبيب ، فما إن دخلت عليه ، ولاح له ما أنا فيه من اضطراب ، حتى ابتدرنى بقوله :

— أراهن على أنك لم تمزق الصورة بعد !

فأمسكت بيده أضغطها مستنجداً ، وصحت :

— لقد فقدتها ... فقدتها ... لا أدرى كيف كان ذلك ؟

وانبعثت أقص عليه ما وقع لى منذ كنت أحتسى القهوة فى الأصيل حتى لقائى إياه ، فقال لى هادئ الصوت ، رزين الحركة :

— لقد أنقذك الله بفقدك هذه الصورة ... تلك خطوة حاسمة فى سبيل شفائك ... عد الآن إلى عملك ولا تفكر فى شىء ...

فأجبته تائه النظرات :

— أخشى أن يكون الطيف قد استرد الصورة !

فوقف الطبيب قبالتى يتأملنى برهة ، ثم قال وعلى فمه ابتسامة ساخرة : ولماذا يسترد الطيف صورته ؟

— تلك هى المسألة ! ... أتوقع أنى مقبل على كارثة ...

— بل إنك مقبل على راحة نفس وطمأنينه بال ... ثق أنك الآن تستقبل بواكير الابلال من علتك ، ما دمت قد فقدت الصورة فقد زالت من طريقك العقبة الكبرى ، تلك التى كانت تبعث فيك أخلاط الهواجس ، وتنفث فيك سموم الأوهام ...

— إن مخاوفى تتزايد ...

— أنصح لك أن تمضى سهرة الليلة فى مسرح هزلى ، أو مرقص ، وأن تدع نفسك على سجيتها حتى تصفو ...

وطفق لسانه يتدفق بالنصح والارشاد ، فوعدته بأن أنفذ ما يوصى به ... ولكنى خرجت من عنده حاقداً عليه ، وقد ازددت يقينا بجهله وحمقه ...

ورجعت على التو إلى المنزل ، وقضيت ليلة قلقة ، لا يكاد يغمض لى جفن حتى ينبو بى المضجع ، فأظل ساهداً مضطرب الوجدان .

وفى مطلع النهار ، حين أقبل الخادم بصحيفة الصباح ، وقع بصرى أول ما وقع على صورتها فى أنباء الوفيات ... وأحسست برأسى يدور ، وبالظلام يحتوينى ... ولما ثبت إلى وعيى وجدتنى ممدداً والخادم بجوارى يدلك يدى وينشقنى بعض المنعشات ... واجتذبت الصحيفة إلى ، وجعلت أحدق فى الصورة مليا ... لم تكن هى بعينها الصورة التى فقدتها ، ولكن هى صاحبة الصورة نفسها فى وضع آخر ... إنها هى ، أفى ذلك ريب ؟ ألا أعرفها حق المعرفة ؟ هاتان العينان النفاذتان هما هما ، وتلك الابتسامة المشرقة البهيجة هى هى .

وقضيت فى الدار أياما لا أبرح حجرتى ، إذ كنت أشعر بتخاذل فى أوصالى ، وخمود فى كيانى . وكنت كالقائد العائد من معركة خسرها ، أئخن بالجراح ، وأغرقته الهزيمة فى طوفان من الوحشة وفقدان الرجاء !...

وما كادت حدة المرض تخف عنى ، وآنس من نفسى بعض النشاط ، حتى خرجت من البيت مزمعا الذهاب إلى منزلها . ولم ألق عناء فى الاهتداء إليه ، فعلمت من البواب أن أسرة الفتاة كانت تقطن بالطبقة الثانية ، ولكنها هجرتها بعد حادث الوفاة على الفور ...

وجعلت أحتال عليه ، وقد أغريته بمنحة سخية ، حتى يسر لى دخول المسكن . وكانت النوافذ محكمة الاغلاق ، والمكان تغشاه العتمة ، وتخيم عليه الوحشة الثقيلة . وكدت أتعثر فى طريقى لما يعترضنى من الأثاث المبعثر هنا وهنالك . وقادتنى قدماى إلى حجرتها وشيكا ، ورأيت فى ركن من الحجرة خوانا صغيراً يلوح أنه كان للزينة أو للدرس ،

وقد تناثرت عليه بعض الأشياء : مشط صغير قديم ، شرائط ملونة ، بقايا من خصلات شعر أملس ، أقلام مهملة ... فاندفعت أقلب هذه الأنقاض ، وما أسرع أن وقعت يدى على صورتها ... إنها الصورة التى فقدتها ، ولم أهتد إلى مكانها ... وانتابتنى قشعريرة عنيفة ، وغامت الدنيا لحظة أمام ناظرى ... وأمسكت الصورة بأصابع مرتجفة ... إنها هى ، هى الصورة عينها ، تلك التى صحبتنى أياما وأياما !

وأخذت أرنو إليها طويلا فانكشف لى منها شىء لم أتبينه من قبل ، هاتان العينان اللتان كانتا ترسلان النظرات النفاذة العميقة ، أراهما الآن فى هذه الصورة وقد خبت جذوتهما ، ونضب ينبوعهما ، فكأنهما عينان من زجاج لا أثر فيهما لوميض الروح ... وتلك الابتسامة التى كانت زاخرة بيقظة الحياة وبهجتها ، تلوح الآن كأنها تقلص حزين يحمل طابع الوداع ...

لا أدرى ماذا مضى من وقتى وأنا على هذه الحال ، أرنو إلى الصورة ، وتذهب بى الأفكار شتى المذاهب ...

وأنبهتنى سعلة أرسلها البواب من حلقه وإذا به يقول :

— طال مكثك يا سيدى !

فأجبته ، والصورة ما برحت رهن أصابعى :

— لحظة ... ثم أمضى !

وأحسست بالبرودة قد سرت فى أناملى ، وأنا أقلب الصورة فى يدى كأنها رفات فاقد الحرارة والحراك ...

ورأيتنى أتناول منديلا كان ملقى أمامى ، فأدرج فيه الصورة ، ثم أضعها فى عناية على الخوان ... ثم أخذت أجمع بعض المهملات التى كانت على الخوان نفسه ، ورحت أهيلها على المنديل ...

ووقفت هنيهة خاشع البصر ، حانى الرأس ، أمام ذلك الجدث العزيز .

ثم بارحت الحجرة فى خطوات متباطئة ، وقد ذهلت عن أن أمسح دمعتين تحدرتا على خدى !

٨

كيف طارت منى أكسفورد

تركت دارى منقبض النفس تملكنى حيرة ... على أن أدبج الساعة مقالا أشغل به المكان المخصص لى فى الصحيفة الأسبوعية التى أعمل بها ، وكنت أحس كأن رأسى قد أجدب ، وأن جعبتى قد خوت ... وسرت فى الطريق قاصداً مقر الصحيفة ، وأنا أتمثل رئيس التحرير ومساعديه كأنهم زبانية ينتظرون مقدمى ليلقوا بى فى قاع جهنم ... ومررت عفواً بـ « بار الفؤاد » — ملتقى الطبقة الراقية من سراة أمس الدابر ، والطبقة غير الراقية من أثرياء الحرب المحدثين ... فتلكأت أتطلع إلى الوجوه ، فاذا بى أتبين بينها وجه صديقى عاطف بك فألفيت قدمى تقودانى إليه ، فلما رآنى هش لى وبش ، ودعانى إلى مجلسه ، فقلت وأنا أهز يده محييا :

— سأمكث معك لحظات قليلة أستمتع فيها بك ، فانى مرتبط بموعد لا بد لى من المضى إليه .

فقرب منى مقعدا ، وقال :

— اجلس نرثر وقتا ، ونعرف ماعندك من جديد الأخبار ...

وسرعان ما طلب إلى غلام الحانة أن يحضر لى كأسا من الويسكى ... وبعد هنيهة وجدت عاطف بك يقدم لى شخصا عن كثب منه قائلا :

— سعادة عبد المولى بك السيوطى ...

فانتبهت ، فألفيت شخصا ضخم الجثة ، سمين الرقبة كأنها جذع شجرة ، يتناثر شاربه على جوانب فمه غزيراً مهوشا كأنه الحسك الشائك ، فأما وجهه فكان مفرطحا قانى الحمرة يمثل فى ملامحه الشوهاء أحد تلك الوجوه المفزعة التى تتخذ فى محافل التنكر .

وسمعت صديقى يقدمنى إليه قائلا :

— أخونا الأستاذ غندور ، صحفى كبير ...

فما كاد يبلغ سمع جليسنا السيوطى كلمة صحفى حتى تقلقلت أركانه فى مجلسه ، ورمق صديقى بنظرة نكراء ، وصاح مغضبا متحشرج الصوت :

— ألم أحرم عليك أن تعرفنى بهذا الصنف من مخلوقات الله ؟

فتضاحك الصديق ملء شدقيه ، وقال :

— أخونا غندور صحفى حقا ، ولكنه ليس طويل اللسان !

فصحت على الأثر :

— كيف واللسان بضاعتى ورأس مالى ؟

وأقبلت على السيوطى الثائر أقول :

— إنى أضع خبرتى رهن مشيئتك !

فلملم السيوطى أنحاء جسمه على مقعده ، وانفرجت أساريره شيئا ، وقال فى غمغمة :

— يغنينا الله عن خدماتك !

وقدم غلام الحانة بالويسكى ، فجرعت من الكأس جرعة وافية ، وأنا أقول للسيوطى :

— على أية حال لا أتأخر عن خدمتك عند الحاجة ... واطمئن الآن ، فلن تضيق بمجلسى طويلا ... لقد أزف موعدى .

وتناولت الكأس ، فجرعت منها أيضا ، وأحسست نزعة إلى معابثة وجيه أسيوط ، باتخاذ تلك اللجاجة الأصيلة فى نفوسنا نحن رعايا صاحبة الجلالة الصحافة ، فواجهته بابتسامة مصنوعة ، وقلت :

— سعادة البك يكره الصحفيين .

فتجشأ بقوله : أكرههم كراهة الموت !

— أليس ثمة من سبب ؟

— بسبب أو بلا سبب ... إنى أكرههم لله فى الله ... أنا حر فيما أحب وما أكره !

— إنى صحفى ، ويحق لى أن أعرف سبب كرهك لزملائى فى المهنة ... ربما استطعت تحويلك عن رأيك ...

— هيهات ! ...

وملأ من قنينة « البراندى » أمامه كأسا ، فقذف فى فمه بما فيها دفعة واحدة ، وراح يمسح شاربه المنتفش ، ويبذل جهد الطاقة فى إخضاع شعيره الشائكة ، ثم ملأ كأسا أخرى قذف بما فيها كما فعل بالكأس الأولى . فازداد احتقان ذلك الوجه الشائه ، واتقدت جذوتا عينيه . ورأيت صديقى عاطف بك يضرب كتف السيوطى مداعبا ، وهو يقول فى إلحاح :

— ناشدتك الله إلا أخبرتنا : لم تكره رجال الصحافة ؟

فتراخى وجيه أسيوط على كرسيه ، فأحسست كأن ضخامته تفيض متدفقة على جوانب المقعد ، وقال فى غير مبالاة :

— إنها لحادثة قديمة وقعت منذ خمسة وعشرين عاما ، فى أعقاب الحرب العالمية السابقة ...

فقلت له ، وأنا أنظر إلى الكأس متشاغلا بما فى قرارتها :

— لقد مضت حقبة طويلة تغير فيها كل شىء ياسعادة البك حتى الصحفيين ... إن طراز سنة ١٩٢٠ قد حل محله الآن طراز أرقى وأحسن ... أهم مايمتاز به طراز سنة ١٩٤٥ هو السرعة والأمانة وحفظ العهد وصيانة الأسرار .

وانتفش شارب السيوطى ، فأخذ يقرض أطرافه بأسنانه الصفراء النخرة ، وقال :

— أتقول حقا ؟ إن صديقى الصحفى الذى وقعت لى معه تلك الواقعة لم يكن حائزاً لأية صفة من هذه الصفات التى تذكرها الآن ... لا حيا الله ذكراه !

فقال له صديقى عاطف بك :

— بالله عليك أخبرنا ، ما ذا كان موقف هذا الصحفى منك ؟...

والتفت إلى قائلا :

— إن عبد المولى بك محدث خلاب الحديث ساحر الدعابة سلس الكلام ، قل أن يكون له فى هذا الباب نظير ...

فتضاحك وجيه أسيوط تضاحكا اهتزت له كرشه وترجحت. ثم ملأ من قنينة « البراندى » كأسه ، وصبها فى فمه ، ثم تمكن فى مجلسه ، وقال تعال وهو يمط ألفاظه مطا :

— إليكما قصتى ... وإنى أدع لك أيها الصحفى أن تحكم على زميلك بما يمليه عليك ضميرك ...

كنت وقتئذ طالبا فى مدرسة المروءة الثانوية بالقاهرة ، أعيش فى مثوى « بنسيون » عيشا هادئا لاغبار عليه . وكان والدى يعيش فى أسيوط يدير أعماله وأملاكه . وقد وعدنى إذا نلت الشهادة الثانوية وحسن سلوكى أن يرسلنى إلى أكسفورد لاتمام دراستى هنالك ، فحرصت على أن أنال رضاه لأحقق حلمى الكبير فى الارتحال إلى انجلترا والاستمتاع بما فيها من مجالى الحياة الرفيعة والعيش البهيج ، فأقبلت على دروسى ، وسلكت مسلك الاستقامة ، ولكنى بليت بصداقة شخص صحفى من أمثالك ، غرنى ما أبداه لى من مودة وصفاء ، فتمكنت بيننا الألفة ، وتلازمنا نقضى معا بعض السهرات . ولما كان المرتب الذى يبعث إلى به أبى كل شهر محدودا كما هو الشأن مع الطلاب ، فقد توافقنا أنا وهذا الشخص على أن نتناوب الانفاق فى ليالى السهر ... ولبثنا على تلك الحال قريرى العين ناعمى البال، حتى حدث أصيل يوم أن كنت أقطع شارع توفيق فاذا بى أرى صديقى الصحفى يواجهنى ، وبعد أن تطارحنا التحيات

قال لى :

— إلى أين ؟

— إلى مثواى « البنسيون » ...

— هكذا مبكراً !

— بى صداع ... أرغب فى الراحة ...

— وأنا أيضا بى مثل ما بك ... تعال نشرب كأسا تشفينا من الصداع . لن أؤخرك عن الاستمتاع براحتك ... إنهم ينتظرونى فى الصحيفة لأكتب لهم مقالى ...

وطرقنا أول حانة مررنا بها فى الطريق . وكانت الحانات قد تكاثرت فى ذلك الزمن كما تكاثرت فى هذه السنوات ... وانتحينا جانبا ، وكان بالحانة بعض نفر من رجال الجيش الأجانب لم يعيرونا أى اهتمام ... وشربنا كأسا بعد كأس ، ونحن نتجاذب أطراف الأحاديث . ولما حان وقت دفع الحساب ألفيت صديقى يتلكأ ويتغاضى ، فقلت له :

— ألم يحن وقت الانصراف ؟

— كما تحب .

— ولكن ... الحساب !

— الحساب ؟... عليك أن تدفع هذه المرة !

فصحت به وأنا واثق مما أقول :

— بل عليك أنت ...

— أؤكد لك ... أن ...

— إنك تغالط ...

— بل أنت المغالط ...

ونهضنا كلانا يرمق صاحبه كما تترامى الديكة بنظراتها ، وهى على أهبة العراك !

ومكثنا كذلك لحظة ، ثم صاح صديقى :

— نحن مختلفان ... فليكن الحكم للقرعة !

وكنا نلجأ إلى هذا الأسلوب كلما نشب بيننا الخلاف على مثل تلك الحال . فأجرينا القرعة ، فكانت الواقعة على الصديق ، فأخذ يهرش رأسه ، وقال متلعثما :

— أرجو أن تدفع هذه المرة عنى ... وسيكون دينا على .

فحدقت فيه محنقا أدمدم ، فبادرنى بقوله :

— حقيقة الأمر أنه ليس معى نقود... إنى راجع من سباق الخيل حيث سلبنى الحصان « كحيان » كل ما ملكت يداى ... أقسم لك على ذلك !

فحظت عيناى ، وقلت صائحا :

— وأنا أيضا ليس معى نقود ...أقسم لك على ذلك !

— كيف ؟ أخسرت مثلى نقودك فى حلبة السباق ؟

فخفضت من بصرى ، وهرشت رأسى هامسا :

— بل فى حلبة سباق آخر ... فى منزل صاحبتك الست نعمات !

فانفجر صديقى يقهقه وهو يقول :

— لم تخسر شيئا وحق السماء ، وإنما ربحت كل شىء !

— لا يحتمل الموقف أى مزاح ... ألسنا فى ورطة ؟ ما العمل ؟

فقال عابثا بكلماته :

أية ورطة ؟ لا شىء !

— إن الأمر جد ...

— المسألة هينة يا صديقى ... إنها لا تخرج عن شيئين : إما أن نأكل « علقة » من صاحب الحانة وبطانته ، وإما أن نقضى ليلة على الأسفلت فى قسم البوليس ... وإذا أسعدنا الحظ نعمنا بالأمرين معا ! ...

وأخذت تتوارد فى خاطرى مشاهد مختلفة : هراوة صاحب الحانة ، رجال الشرطة ، الأسفلت ، وجه والدى العبوس يزفر ويصيح بجملته المعهودة :

لن تفلح أبدا ... أحلق شاربى إذا أفلحت !

فصحت مضطربا واجفا :

كلا ... كلا ...

وضرب صديقى المنضدة بيده ، ورفع هامته يقول :

وجدت لمشكلتك حلا ...

— على به ... أدركنى ...

فحدق فى وجهى ، وقال :

أن نعاود الشراب فى إسراف !

فرفعت يدى كأنى أهم بلكمه ، فأنزل يدى فى هدوء وقال :

لا تيئس ... فرج الله قريب !

وسمعته ينادى غلام الحانة طالبا كأسا بعدها كأس ، ولما ألفانى لا أمد إلى كأسى يدا وكزنى فى جنبى ، وقال :

إن سلوكك هذا لن يغير من الموقف شيئا ... العلقة تنتظرنا ... والأسفلت معد لاستقبالنا ... فلماذا تحرم نفسك الاستمتاع بهذه الفرصة الذهبية ؟

فسرت القشعريرة فى جسدى ، وتراءى لى شارب والدى يتراقص غضبا على شفتيه الغليظتين . ودفع صديقى بالكأس فى يدى ، وهو يقول :

— اشرب ... اشرب ... لك الساعة التى أنت فيها ! ...

فصببت الكأس فى فمى دفعة واحدة . وانطلقنا نشرب دون وعى ، وإذ بنا نتداول أحاديث لا نلوى على شىء ، فأسمعنى صديقى الكثير من النوادر والحكايات والنكات ، ورويت له أنا أشتاتا من الحوادث وقعت لى أو لبعض أهلى ما ظهر منها وما بطن ... وتعالت ضحكاتنا ونحن لا نرعى للوقت حسابا .

وبدأ غلام الحانة يحوم حولنا ، وهو يقلب فينا نظر المستريب ، فكنا نزجيه عنا كل مرة بمطلب جديد ... ولمحنا نحن بعض جيراننا من رواد الحانة يتمايلون على المقاعد لا يعون ، فهمس صديقى فى أذنى :

لو كنت ممن وهبهم الله خفة اليد وجرأة النفس لنشلت محفظة ذلك

الضابط تنتشلنا من هذه الورطة التى نعانيها ... إن اللص لجدير بالتمجيد فى مثل هذا الموقف ! ... إنه بطل !

واندفع يتحدث فى فلسفة السرقة ، وما يمتاز به اللص من جسارة جديرة بالاكبار ... فضربت كتفه بيدى ، وقلت :

لا تلق للأمر بالا ... فرج الله قريب !

واستأنفنا الضحك والقهقهة وتبادل النكات والنوادر وأخلاط الأحاديث ... واسترعت انتباه صديقى حكاية كنت أرويها له ، فجعل يستزيدنى ويستوضحنى فى شأنها ، فلم أبخل عليه بشىء من خفاياها ، ورأيته ينهض وهو يقول لى :

تأذن لى أن أخلو بنفسى ربع ساعة إلى تلك المنضدة القريبة ؟

— ولم ؟

— أرغب فى كتابة مقال الأسبوع هذه اللحظة !

— ما هذا الخلط ؟ أهذا وقته ؟

— لقد هبط على الوحى ، ولا سبيل إلى العصيان !

فاندفعت أسفه وحيه متهكما ، وقام صديقى وهو يقول :

إذا استطعت أن أذهب بالمقالة الآن إلى إدارة الصحيفة نفحونى ثمنها فورا ... وفى ذلك انفراج الأزمة !

وانتقل صديقى إلى المنضدة القريبة ، وشرع يجرى قلمه ، وكنت أرقبه مهتما ، وغلام الحانة يكثر من تحويمه حولنا ومحاصرته إيانا بالنظر الشزر ...

وبعد فترة رجع صديقى إلى ، وقال :

أحسب أنى دبجت قطعة طريفة أثاب عليها ... ولكن عليك أن تساهم فى عملى ...

— أنا ؟ ...

— أنت ! ... ليس عليك إلا أن توقع فى ذيل هذا المقال بالجملة الآتية : « أدليت بهذه المعلومات بمحض اختيارى ، ولا مانع عندى من نشرها » .

— فقط ؟

— فقط !

وتناولت شمالة الكأس ، ثم أسرعت إلى القلم فأجريته بتلك الجملة التى أملاها على وأنا أبعث بالضحكات تتوالى ، دون أن أقرأ من المقالة أى حرف ...

واندفع صديقى صوب الباب مهرولا ، فأمسكت بطرف سترته ، وقد لمحت فى رأسى فكرة راعتنى ، فقلت له :

أما إذا كانت هذه حيلة للهرب تتركنى بها أنام على الأسفلت وحيدا ...

فقاطعنى ، وقد رفع هامته فى عزة وأنفة بقوله :

أقسم بشرفى لأعودن إليك بالنقود ، أو لأشاركنك فى مرقدك الوثير على الأسفلت ! ...

وسرق كالسهم ، وعدت إلى مجلسى وقد اشتدت رقابة الغلام لى ، فأخذ يسار صاحب الحانة ، وشغلا معا بأسرى ، وضربا على نطاقاً من حصار منيع ... وأخذ رواد الحانة ينصرفون حتى خلا منهم المكان ... وبدأ الوقت يتثاقل فى سيره وأنا أتكلف ضبط النفس وأتظاهر بعدم المبالاة ... يالها من لحظات رازحة فادحة أطارت ما فى رأسى من نشوة الخمر ... وتكاثر الرقباء من أتباع الحانة يحيطون بى من كل ناحية ، واستحكم الحصار من كل جانب ... وأخذ جبينى يتفصد عرقا باردا ، وبدأت الحلقة تتدانى إلى وتضيق ، وشهدت صاحب الحانة يتقدم فى جرمه الهائل بخطاه الغليظة ، وفى يمناه هراوة يقرع بها الأرض . وسمعته يتحدث إلى أعوانه عالى الصوت كأنه يسمعنى قوله :

إن موعد إغلاق الحانة قد حل !

وتراءى لى الأسفلت يلتمع فى غمرة الظلام ، وقد تصاعدت من رطوبته الشديدة سحب كثيفة تكاد تحجب ما حولى من المشاهد ... ولا أدرى ماذا مضى على من الوقت وأنا فى جلستى هذه . وبغتة لمحت وجه صديقى

يتخايل وسط هذه السحب الكثيفة وهو يلهث من الجهد والاعياء ...

وتبددت السحب ، فاذا بى أجد صديقى جالساً على مقعده منتفخاً فى جلسته يصفق بيديه يطلب شراباً رفيعا ... وانطلق يتحدث فى لهجة طبيعية أحاديث تافهة . وجرع كل منا كأسه ، وصاحب الحانة وأتباعه ينظرون إلينا ذاهلين مشدوهين ...

وأخرج صديقى محفظته فى كبرياء ، وصاح بالغلام صيحة خشنة :

أين الحساب ؟ أسرع ، فليس لدينا وقت نضيعه فى الانتظار !

فهرول إليه الغلام برقعة الحساب، فرمى له صديقى ببضع ورقات من فئة الجنيه ... ولما رد إليه البقية قذف له بمنحة سخية ، ولم يحرم سائر الخدم من منح مناسبة ... ونهض ، فتبعته على الأثر ، ومضى متثاقل المشية ، وأتباع الحانة يوسعون له الطريق ويومئون له بالتحية البالغة. وقد كنت أنا أثناء ذلك كله واجماً تعروني الحيرة .

وما كدنا نبلغ الشارع ، حتى وقف صديقى قبالتى ، وقال :

— لقد بقى من المبلغ الذى قبضته الساعة عشرة قروش ... لك خمسة منها ... ها كها ...

فترامیت عليه أعانقه ، وأهتف بشكره ...

ومر أسبوع لم ألق فيه الصديق ، وكدت أنسى ما كان ليلة الحانة . وعدت إلى المنزل ذات ليلة ، فاذا بى أجد برقية من والدى تنتظرنى ، وإذا هو يطلب إلى فيها أن أوافيه على التو فى أسيوط ، فتكاثرت هواجسى واشتد قلقى ، ولعبت بى الظنون كل ملعب ... أنزلت بنا كارثة ؟ أفقدنا عزيزاً من الأسرة ؟

وفى ضحوة غد أقلنى قطار الصعيد ، وقضيت ساعات السفر واجفاً مهموم الفؤاد ... وما إن بلغت محطة أسيوط حتى هرعت إلى المنزل ، فلم يرعنى شىء ... المنزل على حاله ، والأهل فى سلامة وخير ، وأخبرونى أن أبى فى حجرة مكتبه ينتظرنى ، فتشاءمت ... لقد كانت حجرة المكتب فى عرف الأسرة كأنها قاعة المحاكمة لا يخلو فيها والدى

بجليس إلا ليحاسبه ويعاقبه ... لقد كان والدى فى هذه الحجرة يحاكم الجانى ويحكم عليه وينفذ العقوبة فيه . وعند ما كنت أسمع قول أبى :

— هاتوا الولد إلى حجرة المكتب ...

لا يبقى عندى ريب فى أنى واقع تحت طائلة العقاب !

ولكن ماذا حدث اليوم حتى يطلبنى إلى حجرة مكتبه بهذه البرقية ؟ أى أمر جلل حفزه ؟ لا أعرف لذلك علة ، ولا أذكر شيئاً وقع منى يستوجب المؤاخذة !

ولم أجد مناصا من المضى إلى لقاء أبى فى حجرة القصاص ، وقد أخذت أجند كل ما فى طوق من أدب ولباقة وتظرف وابتسام ... واقتحمت الباب ، ولكن نظرة واحدة أطلقها أبى فى وجهى دكت كل ما أعددته دكا ، ولم تبق منه باقية !

ووجدت قدمى تخطوان نحو قفص الاتهام فى غير تلكؤ ولا مراوغة ، وكان هذا القفص هو الركن الأيسر من المكتب ، ورأيت والدى — على عهده — يزحم كرسيه بجسمه الممتلىء ... وبغتة جلجلت جملته الخالدة :

— لن تفلح أبداً ... أحلق شاربى إن أفلحت !

وكان حين نطق هذه الجملة ينتفض شاربه انتفاضا بالغا فى شكل بشع مرهوب ... ولطالما تمنيت على الله من قبل أن أرى الحلاق وقد أطار ذلك الشارب العتى ، فأما فى هذه المرة فكنت أبتهل إلى الله أن أكون أنا ذلك الحلاق !

ودفع والدى إلى نسخة من مجلة مصورة ، فرأيت فى الصفحة المبسوطة منها علامة غليظة بالمداد الأحمر ، وسمعته يقول :

— ما رأيك فى هذه النكتة اللطيفة ؟

وألقيت على الصحيفة نظرة خاطفة ، فتشابكت الصور والكلمات ، فلم أتبين منها أى شىء ، ولكنى قلت على الفور :

— نكتة لطيفة جدا ...

وتصنعت الابتسام منتظرفا ، فأجابنى وهو يزأر بصوت محتبس :

— أتراها كذلك ؟

— ألم تقل حضرتك إنها نكتة لطيفة ؟

فضرب المكتب بيده ضربة كادت تهوى به ، وقال :

— غدا تكون حبيسا فى القسم الداخلى من مدرسة أسيوط لاتبرحها إلا حين أريد ... ولن أريد ! ... أسمعت ؟... أفهمت ؟... أأهل أنت لأكسفورد ؟ لن تراها ما حييت !

فقلت وأنا فى غمرة من الدهشة والتعجب :

— فهمت ...

— اخرج !...

وأيقنت أن المحاكمة قد تمت ، وأن الحكم قد صدر ، وليس ثمة من استئناف !

فخرجت أجر قدمى إلى حجرتى ، والمجلة فى يدى ، وألقيت بنفسى على المقعد ، وقد اعتلجت فى نفسى ضروب المشاعر وتلاطمت فى رأسى شتى الأفكار ... يا للنكبة !... أأقضى أيامى فى مدرسة أسيوط حبيساً ؟ وفيم هذا ؟

ووقعت عينى على صفحة المجلة ، فصدمتنى العلامة الحمراء ، وتركز بصرى فى رسم هزلى تبينت فيه صورة مشوهة لأبى تمثله فى لبوس المهرجين : طرطور طويل ، وسراويل فضفاضة منتفشة مفوفة ، وهو ماثل بباب أحد المسارح ، وبيده ناقوس يدقه قائلا :

— هلموا ... هلموا ... شاهدوا الراقصة المراكشية العالمية فاطمة الساحرة ... نجم الشرق وعروس الأحلام ...!

وانهلت على المقال أقرؤه ، ونظراتى تتواثب عل الجمل والسطور ، وأنفاسى تتلاحق ... وضربت رأسى بيدى ، وقد اتقدت عيناى ... إنها قصة مما أفضيت به إلى صديقى الصحفى ليلة الحانة ، وإنها لتتضمن حادثاً لأبى حين كان يطلب العلم فى فرنسة ، وقد وقع فى حبائل راقصة

مراكشية تدعى « فاطمة الساحرة » وذلك أنه قبل مرة أن يكون مهرجا لها فى إحدى قرى فرنسة ، فوقف أمام المسرح يجتلب لها الرواد !

وأكبر ما غاظنى فى هذا المقال أن الصحيفة قدمته بالعبارة التالية :

« أدلى إلينا الشاب المهذب عبد المولى السيوطى بهذه القصة الواقعية الطريفة التى كان والده بطلها ، فننشرها راجين له مستقبلا زاهراً . »

وانكببت على يدى أعضها ، وخيل إلى أنى لو لمحت هذه اللحظة صديقى الصحفى لأشبعته لكما وركلا ، ولمزقته إربا إربا ...

وتراخى الوجيه عبد المولى بك السيوطى فى جلسته ، ومسح شاربه المنتفش ، وأرسل تجشؤة منكرة الصوت وغمغم :

— لست بمنكر أن إفضائى بهذه القصة إلى الصديق الصحفى قد أنجانى من المبيت ليلة على الأسفلت ... ولكن ...

فقلت على الفور :

— ولكن طارت منك أكسفورد !

ونظر الوجيه السيوطى فى عرض الفضاء نظرات تائهة ، وهو يهمهم :

— لشد ما جار أبى فى حكمه !

وألقيت بنظرة على ساعة معصمى ... لقد أبطأت عن موعدى فى الصحيفة التى أعمل بها ... إنى لأتمثل رئيس التحرير ومن حوله زبانيته يرتقبون مقدمى وهم يكنون لى ثورة جامحة ... إن عمال صف الحروف وقوف ينتظرون ، وإن آلة الطبع معطلة متململة !

ولمعت فى خاطرى فكرة سرعان ما شملتنى بفرحة جياشة... فأمسكت بيد صديقى وجيه أسيوط ، وهززتها متحمساً وأنا أقول :

— أشكر لك ... أشكر لك حسن صنيعك ...

ونهضت على الفور مستأذنا ، فقال لى عبد المولى بك وعلى وجهه أمارات التوجس والريب :

— أى صنيع تشكره لى ؟

ولم يكد يتم سؤاله حتى أخذ بطرف ثوبى لا يريد أن أفلت منه ... وواصل حديثه فى شىء من الاهتياج :

— ماذا تقصد ؟ ... يبدو أنك معتزم ...

وتأتأ بكلمات تطايرت من فمه غير مبينة ...

وتضاحك عاطف بك مخاطبا عبد المولى بك :

— دعه يسترزق !...

فأجابه بصوت متهدج :

— كيف يسترزق ؟ على حسابى ؟... والله لا أدعه يعيد المأساة ... أألدغ من جحر الصحافة مرتين ؟

فأفلت من يده ، ووثبت إلى الطريق وثبة أبعدتنى عن متناوله ، ولكنها لم تبعد عن أذنى شتائمه ولعناته التى كان يصبها على فى ثورة وحنق ، كأنها قذائف مدفع رشاش !

وجعلت أعدو متجها إلى دار الصحيفة ، وأمام عينى يرتسم بخط الثلث الكبير عنوان مقالى الذى أزمعت كتابته على الفور :

كيف طارت منى أكسفورد !

٩

الجـــزاء

كان فى مستهل العقد الرابع من عمره ، يتنضر شبابه ، وتكتمل فيه الرجولة والحصافة ...

مهوى فؤاده : الموسيقى ، فى جوها يحيا ، ومنها يستمد هناءة البال .

تلمح فى عينيه وميض الأحلام ، وترى فى وجهه سمات من وداعة الروح ...

تملكه حب الفن ، فوهبه حياته ، وقصر عليه جهده ، ولكن مطالب العيش تناديه ، وليس هو بذى مال فيستغنى عن التكسب . وإذن فلا أقل من أن يطلب الكسب بفنه المفضل ...

وكذلك آثر أن يكون مدرساً موسيقياً ، فانه فى قيامه بهذه المهمة ، لا يبتذل الفن ، بل يعمل على إعزازه ، إذ يسكب روحه ، روح الفنان ، فى أنفس طلابه ، فكأنما هو يضاعف بذلك من شخصيته ، وينمى من سلطانه ، ويضيف أعماراً متعددة إلى عمره ...

ويوماً جلبت إليه صبية تحبو إلى العاشرة ، أعيت أهلها فى تعلم العزف على البيان ، وكانوا حرصاء على أن تحذق ذلك الفن الذى أصبح من حلية التمدن الحديث ...

وراضها الأستاذ بأسلوبه وحيلته ، حتى أسلس قيادها ، فأقبلت تتذوق الفن وتألفه ، وتبدل كرهها للموسيقى شغفاً أى شغف ...

وكان من عادة الأستاذ أن يقيم فى بعض المناسبات حفلات يدعو إليها أسر الطلاب ، ونخبة من شيعة الفن وأصفيائه ، فيعرض فى هذه الحفلات نماذج من جهده الفنى ، ممثلا فيما يعزفه الطلاب ...

ومرة أقام الأستاذ حفلة ممتازة ، فانتظم عقد مدعويه ، وكانت أسرة الصبية أخوف ما تكون ، لا تدرى ما هو نصيب فتاتها من التوفيق أو الاخفاق ؟ ...

وبدت الصغيرة فى صف الطلاب ، تكسوها حلة وردية ساذجة ، وتتميز بوسامة هادئة ؛ على الرغم مما شاع فى وجهها من شحوب ، وما تجلى فى عينيها من قلق واضطراب ...

وتتابع الطلاب على المنصة ، يؤدى كل منهم ما طلب إليه ، ويظفر بتصفيق الاعجاب والاستحسان ...

حتى جاءت نوبة الصغيرة ، فخطت إلى البيان وجلة تتعثر ، كأنما قد انسدلت على عينيها غشاوة حجبت عنها الطريق ...

فدارت برأسها مذعورة تتلمس الخلاص من حرج موئس ، فطالعها وجه أستاذها قد انتبذ مكاناً من المنصة يخفيه عن العيون ، وافترثغره لها عن ابتسامة رفيقة تحمل بين ثناياها الطمأنينة والوثوق... فتعلقت نظراتها حينا بعينيه ، تستمد من وميضهما المتألق روح الهداية ووحى الفن ...

وإذا هى ماضية إلى البيان وما برحت عيناها موصولتين بعينى الأستاذ ، وجلست على كرسى المعزف ، وامتدت يداها تجرى أصابعها على مفاتيحه ، فانبعثت الأنغام تتموج وتتدرج ، وتعلو وتهبط ، وتسرى فى أرجاء الحفل تداعب المسامع فى رقة ولطف ...

وكان أمام الفتاة صفحة الموسيقى ، ولكنها لم تلق عليها نظرة ، بل كانت تعزف ، وهى تنظر إلى أستاذها ، كأنها تقرأ على جبينه الناصع النير سياقة الانغام ...

وعم الجمع صمت شامل ، وأرهفت الأسماع لتستوعب ذلك النغم الشجى ، وتستمرئه فى شغف وإقبال ...

وألفت الصبية نفسها تحيا فى ألفاف نشوتها كأنها فى غيبوبة منام ، وتنتقل إلى أفق علوى لا تحس فيه للحاضرين من وجود ، ولا ترى إلا تينك العينين ، عينى أستاذها ، تنيران لها السبيل .

وبعد حين أحست الصبية بأنها تهبط وئيداً من أفقها العلوى إلى مستقرها الأصيل ، وإذا هى تستفيق من غفوتها الروحية ... فتجمعت أصابعها تصافح البيان إيذاناً بالختام ...

وتعالى التصفيق ، وحمى الضجيج ، وسخت الحناجر بالهتاف ... فحدقت الفتاة فى الجمع حيرى وجلة تسائل نفسها :

— ما خطب الناس ؟

وفيم هذه الصيحات ؟

وتحاملت على ساقيها ، تمشى فى خطاها المتعثرة ، تكاد تنكفىء ... فتبادر إليها الجمع يهنئونها ويغدقون عليها الثناء . ودنا منها والداها فى حنو وابتهاج يزفان إليها مكافأة النجاح ...

وانتبهت الفتاة لنفسها ، والناس من حولها يتحلقون ، فدارت بعينها تتفقد شخصاً بعينه ، فلم تره ... وأطالت البحث والتفقد ، تتخطى بنظراتها جموعاً لا يعنيها من أمرهم شىء !

إنها تريد أن تسمع كلمة الرضا من فمه ، وترى نظرة الاستحسان فى عينيه ...

فى تلك الكلمة وهذه النظرة برهان توفيقها ونجاحها ، وليس فى سواهما برهان !

وأحست دافعاً يحدوها ، فانطلقت تشق الزحام ...

وانتهى بها السير إلى ذلك الركن القصى بجوار المنصة ، ولم يكن بمرأى من جمع الناظرين ، فوجدت أستاذها هنالك يقلب النظر فى دفتر الموسيقى فى جد واهتمام ...

ووقفت أمامه تشعره بقدومها إليه ، فما إن أخذها بصره حتى هش لها ، وتطلقت أساريره ابتهاجاً بها ...

وأمسك بيديها يهزهما قائلا :

— مرحى ... مرحى يا بنية ... إنه لفوز عظيم !

فأجابته فى صوت مختلج النبرات ، وعينها حيرى لا تستقر نظراتها :

— أحقا أحسنت العزف ؟

— كل الاحسان ...

— شد ما كان أبى وأمى يائسين من أمرى ، وهما الآن يرضيان عنى...

فلاطف يديها فى رقة ، وقال :

— لقد كنت تلميذة مجتهدة ، وقد وصلت باجتهادك إلى درجة طيبة ...

فشدت على يد أستاذها ، وهى تسائله فى إلحاح ساذج :

— أحقا أبدعت ؟

فانفرج فمه عن ابتسامة رحيبة ، وقال :

— كل الابداع ...

كانت الفتاة ماثلة تجاهه فى حلتها الوردية ، كالزهرة الناضرة ... أشاعت فيها غبطة النجاح يقظة ومراحا ، فأسبغت على طفولتها رونقا جذابا ... توهجت وجنتاها ، وتألقت عيناها ، وتجلت فيها سمات باكرة من أنثى المستقبل ، وخصائص لماحة من حسناء الغد ... فى وقفتها وشارتها ورنة صوتها يتراءى طيف المرأة فى أبهى حلاها ، ومن حولها تنبعث نفحات لطاف من أريج الفتنة والسحر ...

وألقى الأستاذ على فتاته نظرة طيبة صافية ، وقال لها :

— إنى أعد لك هدية أجزيك بها على نشاطك واجتهادك ...

فتطلعت إليه الفتاة وهى تقول فى سذاجة الطفلة المهتاجة :

— وأنت ؟ ألست أحق منى بالمكافأة ؟ وماذا يجب على أن أمنحك ؟

فتضاحك الأستاذ ، وقال :

— وماذا عندك لى من عطاء ؟

فواصلت الفتاة حديثها فى اهتياج الطفولة :

— اطلب ما بدا لك .

فرنا الرجل إليها فترة ، يجتلى محياها الوديع ، وقال :
— حسبى منك هذا يا بنية !
وأخذ يدها يرفعها إلى فمه ...
فالتمعت عيناها بغتة ، وهى تمنع يده ...
إنها لتحس بغريزتها أن قبلة اليد ليست هى المنحة المختارة ...
إن اليد وإن كانت غضة بضة ، لهى أعجز أن تمنح الأعز الأغلى ...
إن اليد لتعيا عن أن تصل بين الروح والروح ، وتجيب الاحساس بالاحساس ...
فلتمنح أستاذها ما تراه جديراً بما له فى عنقها من جميل ...
وتدانت منه ، واشرأبت إليه ، وهى شاخصة البصر ، مهتزة الأوصال ...
وسرعان ما ألفى الأستاذ يديه تحملانها ، حتى دنا وجهها من وجهه ...
فأقبلت شفتاه على ثغرها الصغير تقتطفان منه قبلة هانئة كانت أحسن الجزاء !

أحدث مؤلفات

محمود تيمور

---

١ — سلوى فى مهب الريح .

٢ — أبو الهول يطير .

٣ — شفاه غليظة .

٤ — كليوبترة فى خان الخليلى .

٥ — حواء الخالدة .

٦ — بنت الشيطان .

٧ — نداء المجهول .

٨ — مكتوب على الجبين .

٩ — فرعون الصغير .

١٠ — عطر ودخان .

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية

893.7T135
S4

BOUND
FEB 23 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58880607
893.7T135 S4
Khalfa al-litham